



هذه القصص كتبتها
وأنا هناك ..
إحسان

لبنان

سيدة
في خدمتك..

الأطفال .. حتى أصدقائي في بيروت أحبهم .. أحبهم جدا .. ولكني أحبهم كما أحب أولادى ، حتى العجائز منهم .. وأتحملهم كما أتحمل أولادى .. وأدللهم كما أدلل أولادى .. وكثيرون من أهل بيروت نصبوا على .. خدعوني .. ولكنى لا أستطيع أن أعتبر نصبهم جريمة فى حقى .. كما لا أستطيع أن أؤخذ طفلا لأنه سكب قنجان القهوة على بدلتى .. أو لأنه شد شاربى وانتزع منه بعض شعرات !!

وربما كان هذا الاحساس هو ما يحببني فى بيروت .. إنى هناك أغفى نفسى من التعمق فى مظاهر الحياة ، وأستريح من تطبيق المقاييس العامة التى نقيس بها الأشياء .. لا أعماق هنا .. سطح بلا عمق .. وهو شيء جميل مريح أن تمضى فترات من حياتك جالساً على سطح ليس له عمق .. ولا مقاييس هنا .. لا شيء له مقياس .. وهو شيء مريح أيضاً أن تنسى ميزان عقلك .. ألا تقيس .. فالمقاييس وضعت للكبار لا للأطفال .. الأطفال يتصرفون بلا مقاييس ..



ومنذ ثلاثة أعوام ، تعودت كلما ذهبت إلى بيروت أن أجلس فى مقهى « ستراند » على رصيف شارع الحمرا .. وفى مقهى « ستراند » التقيت لأول مرة بمدام شردى .. أو سعاد .. كما عرفت اسمها فيما بعد ..

كنت جالساً وحيداً ، أتناول الشاي ، وأطل على بحر السيارات أمامى ، عندما جاءنى الجرسون يقول لى :

- السيدات يدعونك إلى مائدتهن .

ولتفت إلى حيث أشار لى الجرسون .. مائدة يجلس حولها خمس سيدات ، لا أعرف منهن سوى واحدة كانت تعيش فى

أنا أحب بيروت .. قطعاً أحبها .. ومنذ بدأت أسافر إلى الخارج وأنا أتعهد أن أمر ببيروت فى زهابى ، وأمر بها فى عودتى .. وأقضى فيها يومين ، أو ثلاثة على الأكثر ، جالساً على رصيف الشارع فى أحد المقاهى ، أطل على الحركة السريعة العنيفة .

وأملأ أذنى بالضجيج الصاخب المزعج .. وأبتسم .. وابتسامتى فى بيروت لها طعم خاص بين شفتى ، لا أحس به فى أى بلد آخر .. إننى أحس كأنى أبتسم لعشرات الأطفال ، يلعبون أمامى ، ويصرخون ويتشاجرون ، ويثيرون الغبار .. وابتسامتى لهم فيها حب ، وفيها إشفاق ، وفيها سخرية .. وكل شيء فى بيروت أحس به كأنه لعب أطفال .. السيارات الفارحة الكثيرة المتزاحمة فى الشوارع الضيقة ، أحس بها كأنها « لعب » يلعب بها طفل مدلل .. والعمارات الشاهقة الحديثة المنتصبة فوق « رأس بيروت » أحس بها كأنها أقيمت من قطع خشبية صغيرة رتبها طفل بعضها فوق بعض ، وأخشى عليها فى كل لحظة أن تقع .. والفنادق ، والملاهى ، والحانات .. والمناقشات السياسية والأدبية التى لا تهدأ .. كل ذلك أحس به كأنه يدور فى عالم الأطفال .. لا شيء كبير فى بيروت .. لا شيء جاد .. لا شيء حقيقى .. لا شيء يحمل طابع المسئولية التى تميز الكبار عن

القاهرة مع زوجها اللبناني ، وهاجرت معه منذ سنوات إلى بيروت .

وابتسمت لى السيدات الخمس ليؤكدن لى الدعوة التى أرسلتها لى مع الجرسون .. وابتسمت لهن وأنا أملاً عينى باناقتهن .. إن أناقتهن فائقة ، رائعة ، ورغم ذلك قانى أحس بكل منهن كأنها وقفت فى الصباح أمام المرأة كما تقف الطفلة الصغيرة ، وأخذت تقلد أمها فى أناقتها .. أمها باريس .. أو أمها لندن .. أو أمها برلين .. إنها أنيقة مقلدة .. أنيقة منقولة .. أنيقة لا تعبر عن شخصية خاصة .. ليس فيها خط واحد يعبر عن شخصية .. إنما هى أنيقة الفتاة التى استمعت جيداً إلى نصائح أمها .

وانتقلت إلى مائدتهم .. وتولت السيدة التى عاشت فى مصر تقديمى إليهن .. وبمجرد أن جلست ، ومنذ اللحظة الأولى ، وجدت عينى مركبتين على مدام شردى ، واهتمامى كله موجهاً لها .. ولم تكن مدام شردى أجمل السيدات الخمس ، ولكنها قطعاً أكثرهن جاذبية .. وهى تحس بأنها جذابة ، وتبذل مجهوداً ذكياً لتبقى دائماً جذابة .. وهى سيدة كل ما فيها كثير .. كثير ، لا كبير .. ابتسامتها الواسعة التى تكشف عن ثلاثة أرباع أسنانها ، ابتساماة كثيرة تكفى لتوزع على عشر سيدات .. ونظرات عينها كثيرة ، تكفى لتوزع على عشرين عيناً .. وذكاؤها الذى يطل من خلال جبينها العالى ، ذكاء كثير ، يكفى ليوزع على خمسين سيدة .. وأنوثتها التى يضح بها قوامها الفاره الطويل ، أنوثة كثيرة تكفى لتوزع على عشرين أنثى .. وكلامها كثير .. ولكنه كلام ذكى لا تمله ..

وبسرعة استطاعت مدام شردى بذكاؤها أن تختار موضوعاً

يثير اهتمامى لتتحدث فيه .. ووجدت نفسى منجذباً إليها أكثر ، إلى حد أن تلاشت شخصيات الأربع سيدات الأخريات من حول المائدة .. بل إن السيدات الأربع كن منجذبات مثلى إلى مدام شردى .. تتعلق عيونهن بها .. ويضحكن لضحكاتها ، ويوافقن على رأيها .. ولكن مدام شردى كانت من الذكاء بحيث تشعر كل منهن أنها أيضاً مهمة وأنها أيضاً شخصية فكانت تعطى لكل منهن فرصة للكلام فى فترات متقطعة .. وكلما تكلمت واحدة منهن عادت بحديثها إلى مدام شردى .. ليس كذلك يا سعاد .. أتذكرين يا سعاد .. ما رأيك يا سعاد .. و .. و .. وعرفت أن اسمها سعاد ..

ولم تنقضى فترة طويلة حتى كنت أنا الآخر أناديها باسمها مجرداً .. سعاد .. وهى تنادىنى باسمى مجرداً .. كأننا أصدقاء قداماء .. إن جاذبيتها لها هذه الخاصية التى تقفز ببساطة فوق التقاليد وتختصر التفاصيل لتصل إلى النتيجة .. والنتيجة أننا أصدقاء ..

وقبل أن تنقضى جلستنا دعتنى إلى العشاء فى بيتها فى نفس اليوم وقالت :

– دعوت مجموعة من الأصدقاء يسعدهم أن يتعرفوا بك .. ولكنها قالتها بلهجة أو نغمة أحسست منها أنها تحاول أن تؤدى لى خدمة بتقديمى إلى شخصيات المجتمع اللبنانى .. وكانت دعوتها بسيطة بلا تكلف .. ولم تلج .. لم تحاول أن تغرينى .. كان المفروض أن أقبل الدعوة .. لا يمكن أن أرفضها .. وفعلاً لم أرفض الدعوة ..

وقامت السيدات الخمس ، وركبن سيارة فخمة ، وترككنى جالساً فى المقهى ، مبهوراً بشخصية سعاد .. ثم .. عندما خف تأثيرى بها ، وخفت انبهارى ، وبدأت أراجع ما سمعته منها ،

اكتشفت أنها لم تقل شيئاً هاماً .. بل إنى رغم كل ما قالته لم أعرف عنها شيئاً .. ربما عرفت هي عنى خلال كلماتي القليلة ، أكثر مما عرفته عنها من خلال كلامها الكثير .. لقد كان كل كلامها على السطح .. لا عمق فيه .. ولا شيء .. ولكنه رغم ذلك كان كلاماً مسلياً .. كأنك تنثر على الأرض زهوراً مقطوعة لا جذور لها .. وهو فن .. فن أن تتكلم كثيراً دون أن تقول شيئاً ..



وفى المساء ذهبت إليها ..

إنه قصر فخم .. ومن أول لمحة عرفت أنى الوحيد الذى لا يرتدى ثياب السهرة .. أو الاسموكتج .. أو « رباط العنق الأسود » كما تنص بطاقات الدعوة .. واستقبلتني سعادة وابتسامتها الواسعة تكاد تمتصنى كلى .. وقدمتنى إلى زوجها ، السيد عبد الرحمن شردي .. رجل تجاوز الأربعين .. سمين .. هادئ .. صامت .. كل ما عرفته عنه أنه من رجال الأعمال ، ولا أدري ما هي هذه « الأعمال » بالضبط ، ولكنه لا بد أن يكون ناجحاً فيها .. وقد اختفت شخصية السيد عبد الرحمن من ذاكرتى بمجرد أن انتهيت من مصافحته .. إنه من هذا الصنف من الرجال الذى يعيش فى منطقة انعدام الوزن .. لا وزن له حتى لو كان ناجحاً .. ثم أخذتنى سعاد من يدي لتقدمنى إلى ضيوفها .. وعرفت أنها من سيدات المجتمع اللاتى يحرضن على أن يجتمعن فى صالونهن شخصيات لامعة مشهورة .. ويتعمدن أن تتنوع هذه الشخصيات .. سياسى مشهور .. ومهندس مشهور .. ومطرب مشهور .. وصحفى مشهور .. وكاتب مشهور .. وراقص مشهور .. وكان فى صالون سعاد كثير من مشاهير بيروت ، بعضهم فرنسيون ، وبعضهم أمريكيان .. وخيل إلى أنهم تقدمهم

إلى وهى تتباهى بهم .. أحسست أنها تقدمهم إلى بنفس الحماس الذى تقدم به أصناف الطعام على مائدتها ، وهى واثقة أن كل صنف قد طهى بعناية فائقة .. وربما كان أهم صنف فى صالون سعاد ليلتها ، هو الأمير محسن وزوجته الأميرة فاطمة .. أمير من أمراء البترول العرب .. ويبدو أن الحفل أقيم تكريماً له ..

وأجلستنى سعاد بجانب الأمير .. ربما تكريماً لى ، وربما تكريماً له .. إنه أمير فى مقتبل العمر .. ربما لا يتجاوز الثلاثين .. ويبدو رقيقاً مهذباً .. وثقافته أكثر مما كنت أتوقع ، ربما لأنه قضى عامين فى إحدى جامعات أمريكا ، ثم تركها قبل أن يتم دراسته ، وقضى بضعة شهور فى جامعة لندن ، وتركها أيضاً .. واكتفى بأن يكون أميراً .. وزوجته الأميرة ، صغيرة .. ربما كانت فى العشرين من عمرها .. ليست جميلة ، لكنها تحاول أن تكون أنيقة ، وترتبك قليلاً وهى تحاول أن تكون سيدة مجتمع ..

ولم نتحدث كثيراً - الأمير وأنا - فقد كان كل منا مشغولاً بتتبع سعاد وهى تدور كالحلقة بين مدعويها .. توزع ابتسامتها الكثيرة .. ونظراتها الكثيرة .. وذكائها الكثير .. وأنوثتها الكثيرة .. وخيل إلى أننا لسنا وحدنا - الأمير وأنا - اللذان نتتبع سعاد .. كل من فى الحفل يتتبعها .. وكانت سعاد قادرة على أن تشعر كل من فى الحفل أنها مهتمة بتتبعه لها .. وأنها تبادلته نفس الاهتمام .. ليس الرجال فقط .. النساء أيضاً .. بل ربما كان تعلق النساء بها أكثر حرارة وصراحة .. كانت فى طوافها بمدعويها تقف مع إحدى السيدات فيلتف حولها باقى المدعوات ، ويدور بينهن حديث لا يسمعه الرجال ، وترتفع من بينهن الضحكات .. ضحكات كثيرة مجلجلة ، كأجراس الكنائس فى صباح يوم الأحد .. ثم تتسحب سعاد من حلقة السيدات ، لتلطف بالرجال .. وتتسحب

بعدها كل السيدات لتتهتم كل منهن برجل .. كأنهن تلقين أمراً من سعاد .. تجمعهن وتقضهن ..

وربما كانت أكثر السيدات تعلقاً بسعاد هي الأميرة فاطمة .. كانت لا تكاد تمر بها حتى تناديها :
- سعاد ..

وتحنى سعاد على الأميرة لتحادثها .. ثم لا تكاد تتصرف عنها حتى تناديها الأميرة مرة أخرى :
- سعاد ..

وتعود إليها سعاد تقدمها ابتسامتها الكثيرة ..

وأسمع حديثهما .. لا شيء هام .. حديث عن الأزياء ، والمجوهرات ، وأنباء المجتمع .. ولكن سعاد تسكب على الأميرة حناناً ، خيل إلى أنه حنان صادق .. وتحادثها كأنها مسئولة عن سعادتها وراحتها .. وتمد يدها وتعديل لها كتف الثوب كأنها أختها الكبرى .. والأميرة تنظر إليها في حب وتدله ..

ويعد العشاء ، فتحت صالة خاصة للرقص .. وسعاد ترقص مع كل مدعويها .. وتعطى كل من يرقص معها كل ما يريد .. إذا أراد أن يلصقها به ، التصقت .. وإذا أراد أن يبعدها عن صدره ، ابتعدت .. وإذا أراد أن يضع شفثيه قريباً من أذنها ، أعطته أذنها .. و .. و ..

والأميرة فاطمة لا ترقص ..

ولا الأمير محسن ..

ولا أنا ..

ولكن الأمير ركبته حالة عصبية .. ربما لأنه لا يرقص .. ويدخن سيجارته كأنه يمضغها بأسنانه .. وينقر على المائدة الصغيرة بأصابعه نقرات غير منتظمة .. ويهز قدمه فترتعش

ساقه كلها .. ثم انتفض واقفاً ، وقال في حدة :
- سأذهب ..

ووقفت مع الأميرة فاطمة ..

وجاءت سعاد مهرولة ..

وجاء السيد شردي أيضاً ..

ووقفت مع الأمير قائلاً :

- سأذهب أنا الآخر ..

وودعتنا سعاد وزوجها حتى الباب الخارجى .. وخرج مع الأمير شاب لبنانى لعله سكرتيره .. وسيدة لبنانية لعلها وصيفة الأميرة ..

وركبت الأميرة ووصيفتها سيارة ، يقودها سائق وبجانبه رجل أسود من حاشية الأمير ..

وجذبني الأمير من ذراعى إلى سيارة أخرى . قائلاً :

- أسمح لى أن أوصلك ..

وجلس الأمير فى مكان السائق ، وجلست بجانيه ، والسكرتير فى المقعد الخلفى .. وقال ونحن فى الطريق :

- ما رايك لو جلسنا نتحدث قليلاً .. ولو أتى أريد أن أحدثك طويلاً ..

قلت

- لا مانع ..

قال

- نذهب إلى مسكن صلاح ..

وصلاح هو السكرتير الذى يجلس فى المقعد الخلفى ..

ودهبنا إلى هناك ..

شقتة فى إحدى العمارات الجديدة فى شارع الحمرا .. شقة

عازب .. ولم نكد نجلس حتى التفت إلى محسن .. الأمير محسن ..
وسألني :

- هل إيمانك بالحب حقيقي أم مجرد كلام ..

قلت وأنا دهش للمفاجأة :

- حقيقي طبعاً ..

وتنهذ الأمير كأنه يستجير من نار في صدره ، وقال وهو
يمسح على وجهه بكفه كأنه يمسح عنه دخان النار .

- يبدو أن الإنسان يكون أسعد بلا حب .. إنك تستطيع أن
تأخذ كل شيء بلا حب فلماذا الحب ..

قلت :

- سواء سعد الإنسان أو شقى .. سواء أخذ أو لم يأخذ .. فهو
لا يستطيع أن يعيش بلا حب ..

واستطردنا في مناقشة الحب .. مناقشة طويلة استمرت حتى
الرابعة صباحاً .. وكان واضحاً أن الأمير يعانى أزمة عاطفية
عنيفة .. أزمة حب .. ولم أر في حياتي إنساناً يتعذب في رقة ..
ويتألم في استسلام .. قدر ما رأيت الأمير ليلتها ..

•••

في صباح اليوم التالي .. في الساعة العاشرة .. دق جرس
التليفون في غرفتي بالفندق .. وكانت سعاد .. وفرحت بها ..
فرحت فعلاً .. وصحت بها :

- متى أراك ..

قالت وأنا أحس كأن ابتسامتها تطل على من سماعه التليفون :
- إن يومى مزدحم .. سأذهب الآن إلى الأميرة فاطمة
لأصحبها إلى السوق .. ثم سنذهب سوياً لتناول الغداء عند بعض
أقاربها .. أتدرى .. لقد اقنعتها بأن تتلقى دروساً في اللغة

الفرنسية ، وسأعرفها بمدرسة خاصة بعد الغداء .. وبعد ذلك
مدعوة إلى حفل كوكتيل .. ثم إلى العشاء .. إنى أستطيع أن أقابلك
بين الكوكتيل والعشاء ..

قلت :

- لنتركها إلى الغد ..

قالت :

- قل لى أولاً .. لقد سمعتك تتحدث أمس عن اسم دواء تبحث
عنه ، ولا تجده .. ما اسمه ؟ ..

قلت :

- لا تتعبى نفسك ..

قالت :

- لا تعب .. ما اسمه ؟

وقلت لها اسم الدواء .

وقالت :

- سيكون عندك بعد ساعة .. وسأبحث عنك بعد حفلة
الكوكتيل وسأجديك ..

وبعد ساعة كان الدواء الذى أبحث عنه ، يطرق باب غرفتي في
الفندق ، ومعه فاتورة الحساب .. دفعتها ..

وبعد الكوكتيل وجددتى سعاد .. حادثتى في التليفون ، لتعذر
لى ..

وبدأت أسأل عن سعاد .. إن كل الناس يعرفونها .. بعضهم
يحبها ويقدروها .. وبعضهم يحقد عليها ويبغضها .. ولكنها
معروفة جداً .. وخدمومة جداً .. إن كل من عرفها حدثني عن
خدمة أدتها له .. وقد رأيت سعاد بعدها مرات .. وفى كل مرة
ازداد اهتمامى بها ، إنها شخصية لا تستطيع أبداً أن تنساها ..

ولا تستطيع أن تشبع منها .. ربما لأنها دائماً مشغولة خصوصاً مع الأميرة فاطمة .. إنها تحدثني عن الأميرة فاطمة كأنها تحدثني عن ابنتها أو عن أختها الصغرى ..



ثم كان يوم ..
وكنت أسير في شارع الحمراء على الرصيف الذي تقع فيه العمارة التي يسكنها سكرتير الأمير محسن ..
وفجأة ..

رأيت سعاد تخرج من باب العمارة .
ورأيت الأمير محسن خلفها .. كأنه تركها تخرج قبله حتى لا يراها أحد معه ..

والتقت عيناى بعيني الأمير محسن .. فارتبك .. وتوارى ..
وإدعى أنه لم يلحني ..
ورأيتني سعادة ، فخطت نحوي . ومدت يدها إليّ وصافحتني ..
وابتسامتها متسعة إليّ آخرها .. لم تهز رموشها .. لم تبرد يدها .. لا شيء .. لا شيء يدعو إلى الارتباك .. ولا شيء يمكن أن أسىء تفسيره ..

وصاحت فرحة بلقائى :

– إلى أين ؟

قلت :

– أتشرد ..

قالت ضاحكة :

– تعال وتشرد معي .. هناك بضع سيدات في انتظارى بمقهى ستراند .. يسعدهن أن يلتقين بك ..
وشدتنى من يدي لأعبر معها الشارع .

والتفت خلفى إلى باب العمارة .. إن الأمير محسن لا يزال يتوارى منى .. وقد أعطى ظهره للباب حتى لا أرى وجهه ..

وجلست مع سعاد وصديقاتها فى مقهى ستراند .. وهى كما هى .. ابتسامتها كثيرة .. ونظراتها كثيرة .. ونكاؤها كثير .. وأنوئتها كثيرة .. وفجأة أمسكت إحدى الصديقات بيد سعاد ورفعتها إلى أعلى ، وهى تصيح مبهورة :

– سعاد .. ما هذا .. خاتم جديد .

ونظرت إلى أصبع سعاد ، وفيه خاتم من الماس .. قص واحد فى حجم الزلطة الصغيرة ..

وعادت الصديقة تصيح :

– إنه يساوى خمسين ألفا ..

وقالت سعاد بهدوء وبساطة :

– أكثر ..

ثم طافت بيدها على بقية الصديقات ، وكل منهن تنظر فى الخاتم بعينين جاحظتين منبهرتين ..

وبلباقة ورشاقة وسرعة سحبت سعاد يدها وحولت الحديث إلى موضوع آخر .

وأدرت رأسى ناحية العمارة التى تقع فيها شقة سكرتير الأمير .. شقة العازب .. كأنى أبحث عن الأمير محسن ..



وفى صباح اليوم التالى سافرت إلى أوروبا .. وقبل أن أغادر الفندق طرقت بابى رسول يحمل صندوقاً من الحلوى ، ومعه بطاقة من مدام شردى .. سعاد .. « مع السلامة .. لا تغب طويلاً .. نراك بخير » !!

إنها لا تتسى شيئاً أبداً ..

إنها من هذا الصنف الذى يلفك فى مجاملاته حتى لا تستطيع الفكك منه ، فستسلم ..

وحملت صندوق الطوى ، وركبت الطائرة ..
وغبت فى أوروبا شهراً ..

ثم عدت إلى بيروت فى طريقى إلى القاهرة ..
وجلست فى مقهى ستراند كعادتى .. أبتسم هذه الابتسامة
التي تمتاز بطعم خاص لا أشعر به إلا فى بيروت ..
وفجأة ، وقفت أمامى سيارة ، وهبط منها الأمير محسن ،
واندفع نحوى واحتضننى صائحاً :

- كان الله استجاب دعائى .. لقد كنت أفكر فيك من لحظة ..
إنى فى حاجة إليك ..

ثم شدنى من يدي نحو السيارة قائلاً :

- اركب ..

وركبت وأبواق السيارات من حولنا تصرخ احتجاجاً على
سيارة الأمير التي عاقت مرور شلال السيارات فى الشارع
الضيق ..

وأخذنى هذه المرة إلى بيته فى مصيف « عاليه » .. فوق
الجبل .. وحدثته خلال الطريق عن رحلتى فى أوروبا ، وهو
يستمتع حيناً ، ويسرح معظم الوقت .. وعيناه غائرتان كما
لم أرها من قبل .. تحتها هالتان من السواد كأنهما بصمات ليل
شقى .. وكان عصبياً .. يكاد يكون مريضاً . يده ترتعش وهو
يرفعها بالسيجارة .. وشفته ترتعشان وهما تنفثان الدخان ..
وجهه أصفر ممصوص .. وعندما وصلنا إلى البيت ، نزل من
السيارة مهزولاً ، وسار فى خطوات سريعة كأنه يهرع إلى علاج
حالة خطيرة .. ثم أجلسنى على مقعد وشد مقعداً آخر وجلس

أمامى ، وقال وشفته ترتعشان وهما تنفثان الدخان :

- اسمع .. إنك بكل تجاربك وبكل علمك .. تستطيع أن
تعالجنى .. لقد رأيتنا معاً .. لا تنكر .. لقد حاولت يوماً أن
أنازلى منك ، ولكنى كنت متأكداً أنك رأيتنا وفهمت .. إن هذا هو
كل ما أخذته منها .. تأتى إلى الشقة كلما أردت ، وكلما
استلمت .. وتبقى ساعة أو ساعتين ، وهى كما هى .. لا شىء
يتغير فيها .. نفس الابتسامة التي توجهها لعشرات الرجال ..
ونفس النظرات التي تنظر بها إلى كل الناس .. ونفس الحديث ..
ثم تلملم نفسها وتخرج .. كأنها جاءت لتعطى الدواء لمريض ..
كأنها كانت فى دكان تشتترى ثوباً .. لا شىء تغير فيها منذ
عرفتها .. حياتها لم تنحرف مللى واحد .. ولا أحاسيسها ..
لم تتنازل عن حفلة كوكتيل واحدة من حفلاتها من أجلى ..
لم تضح بصديق واحد من أصدقائها الذين أكرههم من أجلى ..
لم يتغير منها شىء أبداً .. أنا الذى تغيرت .. جنتت .. إنى أحبها ..
أحبها .. قل لى ماذا أفعل .. إنك تتحدث كثيراً عن الحب .. حدثنى ..
قلت وأنا أنظر إليه فى إشفاق :

- ليس هذا هو الحب الذى أحدث عنه ..

وصرخ :

- لا تعطنى درساً فى الأخلاق .. لا تعطنى .. إن أمامك
مريضاً .. حاول أن تنقذه .. أنت لا تدري كم أتعذب .. كم أعانى ..
لم أكن أنتظر كل هذا .. لقد بدأ كل شىء سهلاً طبيعياً .. لقد
عرفتها وكانت كريمة معنا .. وأنا زوجتى .. دعتنا أكثر من مرة
إلى بيتها .. ووضعت نفسها فى خدمتنا .. أصبحت زوجتى
لا تستطيع الاستغناء عنها .. وأنا .. ثم كنا نذهب إلى الملاهى
معاً .. وسعنا كثير من أصدقائها .. وكنت أرقص معها .. وتجرأت

مرة وضممتها إلى صدري .. فسكتت .. استسلمت .. وخيل إلى أنها تصغطني إليها .. ثم تجرات أكثر وأسقطت خدى على خدها .. وسكتت .. وخيل إلى أنها تحبني .. وأصبحت أعيش لها .. أصحو في الصباح مندفعاً إليها ، وأقضى المساء معها .. وسط الأصدقاء .. كانت أياماً حلوة .. وكان يمكن أن تكفيني تلك الأيام .. ولكن .. متى اكتفى الرجل .. لقد طلبت منها أن نلتقى وحدنا .. وأبت ، بلباقة .. دون أن تجرحني ودون أن تغلق الباب في وجهي .. باب الأمل .. وأنا أغرقها بالهدايا .. لو كنت أستطيع أن أشتري لها كل الدنيا لأشتريتها .. وأخيراً رضيت بلقائي .. جاءت إلى .. جاءت وكأنها كانت تعلم ما ستعطينه بالضبط .. وأعطته لى .. بسرعة .. وبلا تردد .. كأنها ترد إلى هداياي .. ومن يومها لا ترفض أن تأتي ولكنها دائماً هكذا .. أنا الذي بدأت أتغير .. بدأت أحبها .. أحببتها .. وكانت تمر على لحظات يخيل إلى فيها أنها أيضاً أحببتني .. لحظات .. أرى فيها ابتسامتها قد هدأت بين شففتيها .. ونظراتها قد استكانت .. وحديثها قد سكت .. لحظات أحس فيها أنى بالنسبة لها قد أصبحت رجلاً آخر غير عشرات الرجال الذين يتزاحمون في حفلاتها .. لحظات نادرة قليلة .. ثم فجأة تنتصب أمامي قوية كما هي .. وتخرج إلى دنياها كأنى لم أكن سوى مجرد واحد .. وأحس أنى فقدتها .. فقدتها .. أحس أنى لن أستطيع أن أسيطر عليها أبداً .. أن أجعلها لى .. لى وحدى ..

وأجهش الأمير بالبكاء ..

وسكت قليلاً حتى هدأ ، ثم سألته وأنا أحاول أن أكون رقيقاً

به :

— ماذا تريد منها ؟

قال وهو ينظر إلى كأنه يتهمنى بالغباء :
— أريدها أن تحبني .. ويوم تحبني ستلقى بكل هذه الحياة التي تعيشها ، وتصبح لى .. لى وحدى ..
قلت :

— إن الحب يحدث ، ولا يطلب .. لا تستطيع أن تطلب من إنسان أن يحبك .. تستطيع أن تطلب منه أى شيء إلا الحب .. لأنه لا يستطيع أن يعطى شيئاً لا يملكه .. ونحن لا نملك الحب ، ولكنه يحدث لنا ..

قال فى غضب :

— وماذا أفعل أنا ؟

قلت :

— لا تحبها ..

قال :

— ولكنى أحبها فعلاً ..

قلت :

— ارض بها كما هي ..

قال :

— لا أستطيع .. سأجن ..

قلت :

— قاوم حبك ..

قال :

— لا أستطيع ..

قلت :

— هل عرضت عليها الزواج ؟

قال فى دهشة :

– من أدراك ؟

قلت :

– هل تعتقد أنك عرضت عليها الزواج لأنك تحبها ..

قال :

– طبعاً ..

قلت وأنا أنظر في عينيه في حزم :

– أبدأ .. لقد عرضت عليها الزواج لأنك تريد امتلاكها .. إن أزمك أزمة امتلاك ، لا أزمة حب .. وما يعذبك منها هو استقلال شخصيتها .. هو إحساسك بأنك لا تستطيع أن تخضع هذه الشخصية وتقنيها .. إنها أقوى منك .. ولو أنك تزوجتها ، وامتلكتها لشفيت مما تسميه حباً .

وخبط الأمير على المائدة بقبضته خبطات متوالية ، وهو يصرخ كالطفل العنيد :

– ولكنها رفضت .. رفضت أن تتزوجني ..

وعاد يجهش بالبكاء ..

وجاء رجل من داخل القصر على صوت صراخه ، وأعطاه حقنة مورفين لينام ..



وفى صباح اليوم التالي ، اتصلت بى سعاد فى التليفون ، وجلجل صوتها مرحاً ينبض بالصحة والعافية :

– الحمد لله على السلامة .. كيف لم تسأل عنى ..

قلت :

– كنت على وشك أن أسأل .. متى أراك ؟

قلت :

– إنى على موعد مع الأميرة فاطمة .. سنذهب إلى صيدا ..

أسمع .. سأمر عليك فى ستراند فى السادسة .. اتفقتنا ..

قلت وأنا أبتسم لنفسى :

– اتفقتنا ..

وجاءت فى السادسة .. لم يتغير فيها شيء .. ابتسامتها اللطيفة .. ونظرتها الكثيرة .. ونكاؤها الكثير وأنوثتها الكثيرة .. وملامها الكثير .. وأناقتهما التى تبدو بها كأنها طفلة وقفت أمام المرأة لتقلد أمها الكبيرة ..

وقلت لها وأنا أحاول أن أنظر فى عينها

– لقد رأيت الأمير محسن ..

قالت فى بساطة :

– قالت لى الأميرة فاطمة إنه مريض ..

قلت :

– إنه يتعذب ..

والتفتت إلى وابسامتها لم تغتر ، وقالت بلا دهشة :

– لماذا ؟

قلت

– لقد حكى لى كل شيء ..

وانكشمت ابتسامتها قليلاً ، كأنها غضبت .. وخيل إلى أنها لم تغضب لأنى عرفت ، ولكنها غضبت لأن الأمير لجأ فى شكواه إلى غيرها ..

وقالت

إنى لا أعرف ماذا يريد .. لقد أعطيته كل شيء .. ولكنه يريد شيئاً لا أعرفه ..

قلت

– إنه يريد الحب ..

قالت دون أن تحتد .

– لا تكن خيالياً أنت الآخر .. فسر لي هذا الحب تفسيراً
استطيع أن أفهمه .. ماذا يريد بالضبط .. إنى أفهم أنه يريد أن
يلقاني .. أن يرقص .. أن يأكل .. أن يشرب .. أن يسافر .. كل ذلك
أفعله له .. الشيء الوحيد الذي رفضته هو أن أتزوجه ..
مستحيل .. إنه مجنون .. لا أنا أطيق أن أعيش في بلده ، ولا هو
يطيق أن يعيش في بلدي .. ثم لماذا الزواج ..

قلت :

– إن الحب ليس خدمة ..

قالت :

– ماذا تعنى ؟

قلت :

– إنك تتحدثين كأنك مستعدة أن تقدمي له أى خدمة ..

قالت :

– وما الخطأ في ذلك .. العالم كله خدمات متبادلة .. هو يقدم
لي خدمة وأنا أقدم له خدمة .. إنى أحب أن أقدم للناس خدمات ،
وأن يقدم لي الناس خدمات .. وكل هؤلاء الأصدقاء الذين
أعرفهم .. ما قيمتهم .. يقدمون لي خدمات .. وما قيمتي .. أقدم
لهم خدمات .. هل هذا عيب ؟! .. هل هذا حرام ؟!

قلت وأنا أحنى رأسي في يأس :

– لا ..

قالت :

– بالمناسبة السيد بيضون يريد أن يقابلك ؟

قلت :

– من هو بيضون ؟

قالت :

النائب .. إنه مرشح للوزارة .. ولا شك أنه يهيم جداً أن يتعرف
بصحفى كبير مثلك ..

قلت :

– سأتصل بك غدا ..



ولم أتصل بها ..

ولكن مندوباً من الأمير جاء إلى ، يرجونى أن أذهب إليه ، لانه
سرىض جداً ، ويريد أن يرانى ..

وذهبت إليه ..

ولم يكن فى فراشه .. كان مرتدياً بدلتته الكاملة وفى يده
سدس يقلبه بين يديه ، وفى ركن الغرفة عبد أسود يجلس
القرقصاء كأنه غراب البين ..

ونظر إلى الأمير ، نظرة طويلة ، وقال :

– ماذا أفعل .. هل وجدت الحل ؟

قلت :

– سافر إلى بلدك ..

قال :

– هل هذا هو الحل الوحيد ؟!

قلت :

– واشتر جاريتين فى طريقك ..

ورفع إلى عينيه فى دهشة ، وقال :

– إنك ما زلت عند رأيك ..

قلت :

– نعم .. أنت لا تريد الحب .. تريد التملك .. وهى لا تريد
الحب .. تريد خدمة .. وآسف .. كنت أحسبك مريضاً ..

وانصرفت ..

وتركته يقلب المسدس بين يديه ، ولا أدري هل كان يفكر في
قتل سعاد ، أم في قتل نفسه ..
وأحس بالإشفاق عليها وعليه ..

•••

وارتفعت بى الطائرة .. وألقيت نظرة أخيرة على بيروت ..
لا شيء كبير هنا .. لا شيء جاد .. لا شيء حقيقي .. لا أعماق ..
لا مقاييس .. هنا سطح بلا عمق .. وحياة بلا مقاييس .. والأطفال
يلعبون ، ويصرخون ، ويتشاجرون ، ويثيرون الغبار ..

كوبيا

فجبان تهوة
بارد!

هافانا .. كوبا .. وكنت أقيم فى فندق « هافانا رفييرا » .. فندق كبير .. من أكبر وأفخم الفنادق العالمية التى أقيمت فيها ، وقد بنى قبل الثورة ليستقبل السياح من أصحاب الملايين الأمريكان عندما كانت كوبا كلها مجرد ملهى كبير لأصحاب الملايين .. لكل منهم غرفة فى فندق ، أو بيت فى حى ميرامارا الأنيق ، تنتظر فيه خلية من بنات « المولاتس » ريثما يعود إليها سيدها من شاطئ الولايات المتحدة ، فى عطلة نهاية الأسبوع ..

وبنات « المولاتس » - كما تقول إحدى الأغاني الكوبية - هن أجمل بنات الدنيا .. وهن البنات اللاتي يمتزج فى عروقهن الدم الأسباني بالدم الزنجى .. أو الدم الأمريكى بالدم الأسباني .. وأجمل الجميلات - كما يقال فى كوبا أيضاً - هى التى يختلط فى عروقها الدم الزنجى ، بالدم الصينى .. إنهن كوكيتل بشرى رائع اللون ، مثير .. ولم يكن يكلف المليونير الأمريكى حتى يتذوق كأساً من الكوكيتل البشرى ، إلا أن يركب طائرته الخاصة ، وبعد نصف ساعة فقط ، يكون فى غرفته بالفندق ، أو فى بيته بحى ميرامار .. يرشف كأسه !!

وقد أحسست بإحساس صاحب الملايين بمجرد أن دخلت فندق « هافانا رفييرا » .. القاعات الواسعة الأنيقة تمتد أمام عيني ..

والديكور يكسو الأرض والجدران بمظاهر الفخامة والأبهة .. والثلاثة ملاء ليلية - داخل الفندق - تعزف فى كل منها فرقة موسيقية تكاد أنغامها الراقصة ترفعنى عن الأرض وتطير بى ..

ولكن .. بعد قليل - بدأ إحساسى بانى مليونير يرايلتى .. لا يكفى أن تعيش فى بيت مليونير لتحس بإحساس المليونير .. إنما يجب أن تملك ثروة مليونير ، وأن يحيط بك مجتمع مليونيرات ، وأن تتبنى ذوق المليونيرات وتقاليد المليونيرات ، وأن يكون لك عقل مليونير ، وقلب مليونير .. إن اختلاف المستوى الاقتصادى يخلق أنواعاً مختلفة من البشر ، لا مجرد طبقات من نوع واحد .. أنواع مختلفة فى طبيعتها ، وفى عقليتها ، وفى ذوقها .. والشعب عندما يفرض ثورته على أصحاب الملايين ، لا يطالب بأن يعيش حياتهم ، ويتبنى تقاليدهم ، إنما يثور ليحصل على حقه فى أن يعيش حياته هو .. وذوقه هو .. وتقاليدته هو .. حياة وذوق وتقاليد الشعب .. وهكذا تتطور الحضارات الإنسانية بفضل الثورات .. كل ثورة تفرض حضارة جديدة تعبر عن ذوق الشعب .. ذوق الشعب فى كل نواحي الحياة .. فى هندسة المباني ، وفى صناعة الأثاث ، وفى الآداب الاجتماعية ، وفى ألوان الطعام .. و .. و ..

ورغم ذلك فقد حرصت ثورة كوبا على أن تحتفظ بكل مظاهر متعة أصحاب الملايين .. حتى الاستعراضات العارية الفخمة فى ملهى كوبروم ، والتروبىكانا .. لا تزال كما هى تعرض كل مساء .. سواء شاهدها أربعة متفرجين أو أربعمئة .. وهى استعراضات تكلف مئات الدولارات كل ليلة ، وتزيد فى روعتها عن استعراض الفولى برجيز والليدو فى باريس ، واستعراضات برودواى فى نيويورك ..

والفنادق الفخمة بعد أن انقطع عنها السياح الأمريكان ، خصصتها الحكومة لضيوفها الأجانب ، ولعمال « الفانجورديا » - أى عمال الطليعة ، وهم المتميزون فى الانتاج - تدعو كلاً منهم لقضاء أسبوع فى أحد هذه الفنادق كمكافأة له .. ثم خفضت أجر الإقامة فى الفندق من ثمانين دولاراً فى اليوم إلى ثمانية دولارات حتى يتمكن العرسان الجدد من قضاء أيام من شهر العسل فى الفندق الفخم ..

المهم ..

بدأت إقامتى فى فندق « هافانا ريفييرا » تطبق على صدرى .. وزملائى نزلاء الفندق لا يزيدون على بضعة أفراد .. شاعر روسى وزوجته دعتهما الحكومة الكوبية .. ووقد من كوريا الشمالية يدرس مشاريع تربية الدجاج .. وعريس وعروسه فى شهر العسل .. هؤلاء فقط يقيمون فى فندق يزيد عدد حجراته على مائتى حجرة .. وأحسست كائى وهم حيات من الحصى تتخبط داخل شخصيخة .. وموظفو الفندق الذين يزيد عددهم أضعافاً على عدد النزلاء ، يتسكعون فى تكاسل .. وعامل الأسانسير العجوز يفتح لى الباب وهو جالس على مقعد يقرأ فى جريدة الحزب ، ثم يرفع عينيه من خلف نظارته وينظر إلى فى تعال كأنه يعلم أتى ضيف الحكومة ، وأنه يدفع من عمله نفقات إقامتى .. بلا مبرر !

وفتاة شقراء جميلة من موظفات الفندق ، تشبه مارلين مونرو ، ترتدى زى الحرس الوطنى وتحمل بندقيّة وتقوم بدورها فى الحراسة .. والمقاعد التى طال إهمالها تحمل على مساندها بقعاً سوداء .. وقاعة الطعام ليس فيها إلا أنا وأربعة آخرون .. وقائمة الطعام الطويلة هى نفس القائمة التى كانت تقدم لأصحاب الملايين

ولكن المكتوب شىء ، والموجود شىء آخر .. والجرسون هو نفسه الذى كان يخدم صاحب الملايين .. إنه ينظر إليك نظرة غائمة كأنه يتساءل ماذا جرى فى الدنيا .. وكأس « الداكرى » - وهو الكوكتيل الوطنى - فى يدي وقد ذاب فيه الثلج من طول ما أهملته ، ولم يعد له طعم .. والاستعراض الفنى الرائع الذى يعرض أمامى على مسرح « كوبا روم » - داخل الفندق - يتقصه باس كبير يكاد يفقده روعته .. يتقصه الجمهور .. إن الجمهور لا يفصل عن المسرح ، إنه جزء من المسرح .. ومن المسرحية .. إن مجرد امتلاء المقاعد بالمتفرجين يضيف على المسرح رهبته ، وروعته ، وحيويته ، ويضيف على الممثل شخصيته ويمنحه رنين صوته ، وقدرته على التعبير والاندماج .. ولكن ، فى تلك الليلة ، لم يكن هناك جمهور ، أنا وعشرة آخرون ، وربما أقل .. والأجساد الغائبة التى تتحرك على المسرح فى إطار فنى عبقري ، والتى يزيد عددها على مائة ، تبدو كأنها أجساد تائهة تبحث عن شىء .. تبحث عن الجمهور .. وأصقق طويلاً وبشدة .. كائى أحاول أن أموس هؤلاء الفنانين عن آلاف المصفيقين .. ويرتد إلى صدئى تصفيقى فى القاعة الكبيرة الفارغة .. فأشعر بالخجل والحرج ، وبخيل إلى أن الراقصات ينظرن إلى فى إشفاق ، وواحدة منهن تقول « لا تتعب نفسك .. تعال ليلة الأحد ، وستجد هذه القاعة مزدحمة بالجمهور .. إننا نستمد الأمل من ليلة الأحد ! » ..

وجريت إلى غرفتى فى الطابق الثانى عشر ، هرباً من ضيق تلك الليلة ..

غرفة واسعة رائعة ، على الطراز الأمريكى .. طراز أصحاب الملايين ، مكيفة الهواء .. وأنا أحس كلما دخلت غرفة مكيفة الهواء ، أتى دخلت فى فريجيدير ، أغلق بابها على .. أحس أنى

أصبحت قطعة من اللحم المحفوظ تنتظر إلى أن يفتحوا عليها الباب ليسحبوها ويضعوها على النار .. إنها حالة نفسية أشبه بحالتي عندما أدخل السجن .. إن السجن يعطل قدرات الإنسان الطبيعية على التفكير بصوت عال ، والغرفة المكيفة الهواء تعطل قدرات الإنسان الطبيعية على تكييف نفسه لاحتمال الجو المحيط به .. إن أى تعطيل لقدرة الإنسان ، سجن .. والسجان هنا هو هذه الآلة . آلة تكييف الهواء !

ووقفت داخل سجنى أتطلع من خلال النافذة الزجاجية العريضة إلى مياه خليج المكسيك .. هادئة ، غامضة ، مثيرة .. تعلوها طبقة منخفضة من أبخرة رطوبة المناطق الحارة ، كأنها دخان يتصاعد من مصباح علاء الدين ، وكان هذه الأبخرة ستتجسد فى لحظات لتصبح عفريتاً .. وشبيك ليبيك عبد وبيبي إيديك .. ومن بعيد ، ومن فوق الأبخرة ، تبدو أنوار المدمرة الأمريكية « إكسفورد » التى تقف هناك دائماً لمراقبة شواطئ كوبا .. ربما خوفاً من أن ترحف جيوش كوبا لتحتل أمريكا .. لا .. أمريكيا لا تخشى جيوش كوبا .. إنها تخشى حرية كوبا !..

وفجأة انطلق الرعد يمزق هدوء الليل .. وانطلق البرق يمزق الظلام .. رعد مخيف ، وبرق يعمي العينين .. ثم هطل المطر .. إن المطر فى المناطق الحارة غزير ، ثقيل ، لزج ، كأن السماء تمطر زيتاً ..

وادعيت الهدوء .. بينى وبين نفسى .. وجلست أتم قراءة كتاب فيدل كاسترو : « التاريخ سيحكم لى » .. إنه ليس كتاباً ، ولكن نص المرافعة التى ألقاها فيدل أمام القضاة عندما قبض عليه قبل أن تتجج الثورة ويتولى الحكم .. مرافعة رائعة .. قطعة أدبية . تنبض كل كلمة فيها بالحماس فى أعلى ذروته .. إنك تحس أن

كاسترو لم يفقد حماسه لقضيته من أول كلمة إلى آخر كلمة .. ولم تنخفض درجة هذا الحماس فى سطر عنها فى سطر آخر .. ومن السهل دائماً أن تتحمس عندما تكتب ، أو عندما تتراجع ، أو عندما تتأثر ، ولكن من الصعب دائماً أن تحتفظ بحماسك ، وأن تحتفظ به فى درجة حرارة واحدة .. وربما كانت ميزة الزعيم الثورى أن طبيعته تعينه على الاحتفاظ بحماسه فى درجة حرارة واحدة .. بل إن الزعيم الثورى لا يستطيع أن يحتفظ بزعامته إلا مدى ما يستطيع الاحتفاظ بدرجة حرارة حماسه .. لا يتعب .. ولا يفتر .. ولا يتنفس إلا من خلال حماسه لقضيته .. وعندما تقرأ كاسترو قبل نجاح ثورته ، وتقرؤه بعد نجاح الثورة .. وإلى اليوم .. تجد أن أكبر مقومات شخصيته هو هذا الحماس الذى لا تنخفض أبداً درجة حرارته ، كأنه حماس ينطلق من فرن دائم الاشتعال يحتفظ به فى صدره ..

وانتهيت من قراءة « التاريخ سيحكم لى » ..

وتعبت ..

تعبت من خواطرى السياسية ..

ومرة واحدة انطلقت من غرفتى إلى الشارع .. لم يهمنى الرعد ولا البرق ولا المطر ، ففى كوبا استأنسوا الرعد .. واستأنسوا البرق ، واستأنسوا المطر ، واستأنسوا المحيط ، واستأنسوا أيضاً المدمرة الأمريكية « إكسفورد » ، فأصبحوا يبحثون عنها كل صباح عند الأفق ، فإذا رأوها اطمأنوا إلى أن ليس هناك جديد ، وإذا لم يجدوها أعلنت حالة الطوارئ .. فربما سحبت المدمرة استعداداً للغزو !

وسرت تحت المطر الثقيل ملتفاً بمعطف « ووتر بروف » ، وعلى رأسى « باتشنجا » .. أى قبعة صغيرة مما يرتديها أهل

المدن .. والقبة الكبيرة التي يرتديها الفلاحون ، اسمها « سومبر يرو » ، وفي كوبا يدللون القبعات ويغنون لها .. هناك أغنية عن الـ « سومبر يرو » ورقصة اسمها « باتشنجبا » ، وعندما تحب أن تدلل قبعتك تستطيع أن تسميها « باتشنجيتا » ..

ولم يكن لي هدف من السير في الشارع إلا أن « أتوه » .. وهذه هي عادتي دائماً كلما داهمني الزهق وأنا في بلد غريب .. أخرج إلى الشارع وأحاول أن « أتوه » .. أن « أضيع » .. هذه المحاولة تملؤني بإحساس المغامرة .. كلما اخترقت شارعاً جديداً لا أعرف إلى أين يؤدي ، أشعر يشعور المكتشف .. المغامر .. ويقفز خيالي إلى تصور مغامرات كثيرة قد تحدث لي .. قد تهجم على عصابة وتقتلني .. قد يصادفني رجل يقودني إلى سر من أسرار البلد .. قد .. وقد .. عشرات من الصور تطرأ على خيالي وأنا أجوب الشوارع بلا وعي ، وتزيح عنى ثقل الإحساس بالزهق ، وتنشط خيالي .. وعادة أعود من حيث أتيت .. إلى غرفتي في الفندق .. دون أن يحدث لي شيء .. ولكني لا أندم .. فمجرد توقع المغامرة ، إحساس لذيق منعش .. يشغلني عن خواطري .. وعن نفسي التي تتعني ..

وهافانا تكاد تنقسم إلى ثلاثة قطاعات .. من الناحية الهندسية ومن ناحية مظاهر المدينة .. قطاع أمريكي .. وقطاع أسباني .. وقطاع زنجي ..

ليس لكوبا مظهر شخصية كوبية متميزة ، ولكن هناك محاولة ناجحة لخلق الفن المعماري الكوبي ، قام بها مهندس عبقرى عندما وضع تصميم مدينة الفنون التي أقيمت في ضواحي هافانا .. إننى لم أر في حياتي تصميماً هندسياً أروع ولا أغرب من تصميم مدينة الفنون - وهي تضم جميع المعاهد الفنية .. الرسم ،

والرقص ، والموسيقى .. و .. وقد استعان فيه المهندس بطابع الهندس الحمر ، سكان كوبا الأصليين ، كمحاولة لخلق طراز كوبي «مميم متميز ..

والقطاع الأمريكي ، أمريكي مائة في المائة .. العمارات العالية .. والمحال التجارية .. وأضواء النيون .. حتى الإعلانات التجارية عن البضائع الأمريكية لا تزال في مكانها .. كوكاكولا .. فايرستون .. « وديبر .. ومحطات البنزين على الطراز الأمريكي ، وبمعدات أمريكية وأسماء الشوارع ترجمة أمينة لأسماء شوارع نيويورك وواشنطن .. ومبنى منقول حرفياً عن مبنى الكابيتول الأمريكي .. الفرق الوحيد بينه وبين الكابيتول أن عدد أعمدته يزيد عموداً واحداً .. الملاهي كلها على الطراز الأمريكي ، تدار بأسلوب أمريكي ، تحمل أسماء أمريكية .. « جوني ٨٨ » ، « ربما بالاس » « كاريبي صالون » .. و .. إن عدد الملاهي في هافانا قد يصل إلى مائة .. مائتين .. وكانوا يقولون دائماً : « إنك إذا أردت أن ترى كل ملاهي هافانا ، فيجب أن تقضى فيها عاماً » .. وقد كانت كل هذه الملاهي عامرة ، عندما كانت كوبا مدينة ملاه للسياح الأمريكيان .. وبعد الأمريكان ، أغلق بعضها ، ولكن أغلبها لا يزال يعمل .. بلا نشاط .. وبلا حماس .. ويطبع المدينة بالطابع الأمريكي .. وربما كانت مظاهر الحضارة الأمريكية وتأثيرها أكبر من ذلك .. وأذكر أنني وأنا في طريقي إلى كوبا كان معي في الطائرة فرقة من بنات المدارس كن في زيارة تشيكوسلوفاكيا .. وهبطت الطائرة في مطار كندا .. وهزعت البنات إلى دكاكين البيع داخل المطار ، ووفقت أرقب ماذا يشتريين بالدولارات الأمريكية القليلة التي يحملنها .. كلهن اشترين لبناناً أمريكياً « تشكليتس » .. اشترين بكل ما معهن من دولارات ... « تشكليتس » فقط .. وأذكر أيضاً

أنى كنت فى « كاماوى » - إحدى مقاطعات كوبا - أفرج على موكب الكرنفال الذى أقيم فى يوم عيد المقاطعة - ولكل مقاطعة هناك عيد كرنفال - وأخرجت علبة سجاائر أمريكية « مالبرو » وأنا جالس على إحدى درجات المدرج الخشبي الذى أقيم فى الميدان الكبير .. وإذا بفتاة شابة تسقط على من أعلى المدرج .. وتصيح فى وجهى بفرح كأنها عثرت على كنز :

- مالبرو .. هل أستطيع أن أخذ سيجارة ..

قالتها بالأسبانية - لغة كوبا - ولكنى فهمت ما تعنيه ، فأعطيتها علبة السجاائر كلها ، ولا أدرى ماذا جرى للفتاة بعد ذلك ، وبعد أن حذجها مرافقى بنظرة غاضبة !!

وسرت طويلا فى شوارع القطاع الأمريكى .. شوارع تكاد تكون خالية من الناس .. وقد كانت هافانا - عندما كانت مدينة ملاء - تبدأ الحياة فى الساعة الحادية عشرة ليلاً ، وتنام فى الفجر .. ولكنها الآن تنام فى الحادية عشرة وتستيقظ فى الفجر .. وعندما تتطلع إلى وجوه الناس فى شوارع هافانا يخيل إليك

أنك تسير فى القاهرة .. نفس ملامح الوجوه .. ونفس الألوان : الأبيض ، والأسمر ، والأسود .. وقد زالت التفرقة العنصرية بين الألوان تماماً .. وكان الزنوج أحق الناس بالتمتع بمكاسب الثورة بعد العذاب الطويل الذى عاشوا فيه أيام الاستعمار الأسباني ، ثم أيام النفوذ الأمريكى .. فأصبحوا بعد الثورة هم « اللون المدلل » ، الثورة تدللهم .. والشعب يدللهم ، وأصبح مظهراً من مظاهر الثورة والتقدم أن يكون صديقك الحميم زنجياً ..

والفتاة الكوبية تكاد تكون نسخة من الفتاة المصرية . إحساسها الطاغى بأنوثتها .. وأسلوب التزين .. ونفس العواطف الحارة الجياشة .. وربما كان الفرق الوحيد أن ثياب المرأة الكوبية

المسيق من ثياب المرأة المصرية !.. وقد خرجت فتاة كوبا إلى العمل .. واشتركت فى الثورة ، وجندت فى الحرس الوطنى ، وأدت خدمات رائعة لوطنها ، ولكنها لم تفقد أبداً إحساسها المبالغى بأنوثتها .. ودلالها !..

بل ربما كان شعب كوبا كله فيه كل خصال الشعب المصرى .. العظيمة والمرح ، والعاطفة الجياشة ، والاستسلام القدرى ، والإحساس الفنى .. ربما لأن شعب كوبا نصفه أسباني .. ونصفه زنجى .. فيه طباع البحر الأبيض ، وطباع أفريقيا .. كالشعب المصرى !..

وانتيت فى سيرى من القطاع الأمريكى دون أن تصادفنى أية مغامرة .. كنت فى كل خطوة أتقرب أن يخرج إلى من إحدى علب الليل التى أقيمت تحت الأرض ، شخص يثير انتباهى ويشدنى إلى مغامرة .. كنت أتوقع أن أضبط بعض الكوبيين الذين يفرون إلى هيامى عبر خليج المكسيك .. كنت أتوقع أن ألتقى بفتاة تبنى .. أو فتاة تجرى كالمجنونة وخلفها رجل شاهر خنجره .. كنت أتوقع مغامرات كثيرة يصورها لى خيالى القصصى .. ولكن .. لا شىء !!

ووجدت نفسى فى القطاع الأسباني .

كأنى أسير فى شوارع مدريد أو فى شوارع برشلونة ، نفس طراز الشوارع « البرادو » .. ونفس الأسماء .. ونفس البيوت ، والكنائس ، ونفس الحانات والدكاكين ..

وفى مقهى هناك سمعت مطرباً شعبياً يغنى « كاريوكا » .. وهى شىء آخر غير ما تتصوره السيدة تحية كاريوكا .. وغير الرقصة القديمة المعروفة .. إن أغاني كاريوكا هناك أشبه بأغاني أبو دراع ومحمد طه عندنا . يرتجل المطرب الشعبى مجموعة من

الأزجال يحيى بها الحاضرين ، أو يتغنى بها بالانتصارات الوطنية ، ويلقيها على أنغام موسيقى « الجاز » وينهى كل شطرة من الزجل بكلمة « كاريوكا » .. وهى كلمة نسيت أن أسأل عن معناها !..

وكوبا كانت دائماً مصدر كل الأنغام والرقصات التى ملأت الدنيا .. كوبا هى التى أعطت العالم موسيقى الكونجا ، والتشاتشا ، والبثانجا .. و .. و .. وكانت الشركات الأمريكية تستولى على إنتاج الفنانين الكوبيين ، وتتولى إذاعته على العالم وتجنى من ورائه أرباحاً هائلة .. ولم تستطع حكومة كوبا أن تحل محل الشركات الأمريكية ، وقد ظهرت فى كوبا ألحان جديدة ورقصات جديدة ، رائجة ، مدهشة ، ولكن العالم لم يسمع بها .. لأن أحداً لم يستطع أن ينقلها إلى العالم .. موسيقى ورقصة « الموزمبيكى » .. و « الباكاه » - ومعناها « تعال لى » - و « البيلون » ، ومعناها « الهون » .. موسيقى ورقصات لو سمعها الراقصون فى أنحاء العالم ، لجنوا ..

وفى كوبا يهتمون بابتكار « الريتم » أى الوزن الموسيقى ، أكثر مما يهتمون بابتكار خطوات الرقص .. ويعزفون الألحان التى نعرفها بأسلوب آخر لم نسمعه .. وقد سمعتهم يعزفون « الكونجا » بأسلوب غريب مثير .. كانت تعزفها فرقة من ثمانية عشر قارع طبل .. ثمانى عشرة طبله مختلفة الأحجام والأشكال تنطلق منها أنغام قوية حلوة .. يقف لها شعر رأسك .. وهذه هى الكونجا الأصلية ، قبل أن يتولى الأمريكان توزيعها على العالم ..

و

وخرجت من القطاع الأسباني ، لأجد نفسى فى القطاع الزنجى .. هناك فى أطراف المدينة ..

وأنا أسميه القطاع الزنجى مجازاً ، لأن البيوت الخشبية الفقيرة المصطفة تحت أشجار جوز الهند ، وأشجار « بالماريال » - وهو نوع من النخيل الأبيض - وينتشر بينها نبات « السيلاس » وهو نبات ينطلق من باطن الأرض فى أوراق حادة طويلة جافة كأنها الحراب .. هذه البيوت تذكرنى بالأحياء التى سرت فيها عندما زرت دكار ، وبامكو ، وأكرا فى أفريقيا الغربية ..

ولكن هناك فرق كبير ..

فعندما تطل داخل البيت الخشبي الصغير الفقير ، تجده مؤثثاً بإثاث مودرن ، نظيف .. ورايو ، وتليفزيون ، وفريجيدير .. ثم تنطلق من داخل البيت فتاة شقراء حلوة ترتدى « البلوجينز » وتعص شعرها على نمط ذيل الحصان ..



كم سرت على قدمى ؟

ساعتين .. ثلاثاً .. أربع ساعات .. لا أدرى .. ولم أشعر بالتعب ، فإنيك عندما تسير على قدميك مستغرقاً فى أفكارك وأحاسيسك ، تصل إلى حد لا تشعر بعده بالتعب .. ولكنك تسير بحطوات ميكانيكية ، كأنك تتنفس بقدميك ..

وأفقت على ضوء الفجر يصدم عيني ، وقد انقطع المطر ، وسكت الرعد ، وانطفأ البرق ، وتلفت حولى فإذا بى أكتشف أنى ذاته فعلاً .. وأنا ضعيف فيما يسمونه « الإحساس بالاتجاه » ، أى أنى لا أستطيع أن أحدد بالضبط الاتجاه الذى سرت فيه حتى أعود منه .. ورغم ذلك فقد كنت مصمماً على ألا أطلب من أحد أن يدلنى على الطريق .. فقط استدرت ، وعدت أسير .. والناس بدأت تخرج إلى الشارع مع الصباح وأنا أبحلق فى وجوههم بعيني اللتين أرقههما السهر والرطوبة ، كاتى أحاول محاولة يائسة أن

اكتشف من خلف وجوههم أسرار كوبا ..
إلى أن التقيت بمقهى ..

ليس مقهى .. بار .. بار يقدم القهوة والفاطير .. عبارة عن بيت خشبي متواضع يقع على حافة الطريق ، ومن خلفه أرض قضاء تكسوها الحشائش ، وترتفع فيها بعض أشجار جوز الهند ، والنخيل الأبيض ..

وفى الداخل مائدة بار .. عالية .. مستديرة .. تصطف حولها المقاعد العالية .. وتقف خلفها سيدة سميحة ضخمة ، مكتنزة الوجه .. ربما كانت فى الأربعين من عمرها ، وربما كانت أكثر من ذلك ..

وتعلقت عيناى بوجه هذه السيدة ، وأنا أتسلق أحد مقاعد البار لأستريح عليه .. إن فى وجهها طيبة عجيبة .. ينطلق منه شعاع هادئ يربط على أعصابك حتى تستريح .. وفيه مرح برىء يبدو فى رعشة وجنتيها المكتنزتين .. وفى عينيها الخضراوين هدوء ساكن كهدهود أشجار جوز الهند فى ليلة حارة ، وعمق كعمق مياه خليج المكسيك .. ولونها أسمر يميل إلى البياض ، أو أبيض يميل إلى السمرة .. ربما كانت - فى أيامها - أجمل الجميلات . وأحسست وأنا معلق العينين بهذا الوجه ، أنى التقيت بكوبا .. كوبا كلها ..

واقتربت منى ، وقلت لها وأنا ابتسم لها ابتسامة كبيرة :
- قهوة .. موتشو كالدو .. موتشو .. موتشو كالدو ..

ولا أدرى هل تكلمت بالإيطالية أم بالأسبانية ، ولكنه تعبير تعودت أن أستعمله فى كوبا ، وتعودت أن يفهموه منى ، ومعناه « ساخن جدا » .. فهم فى كوبا يقدمون القهوة باردة ، أو تكاد تكون باردة ، ويشربون الفنجال فى جرعة واحدة .. وأنا لا أطيق

القهوة باردة ، ولا أطيق أن أشرب الفنجال فى جرعة واحدة ، فقلت كلما طلبت فنجال قهوة صحت : « موتشو كالدو .. موتشو .. موتشو ! »

وابتسمت لى السيدة ابتسامة صغيرة حازمة ، أصغر بكثير من الابتسامة التى انتظرتها منها ، التى يوحى بها وجهها الطيب .. وتكلمت باللغة الأسبانية كلاماً فهمت منه أنها تسألنى :

هل أنت روسى ؟!

وضحكت .. ففى كل بلاد العالم يخطئ الناس فى نسبتي إلى وطنى .. قد يعتقد البعض أنى إيطالى .. أو أسبانى .. أو جريكى .. ولكن لا أحد قبل اليوم خيل إليه أننى روسى .. ربما لأن معظم الأجانب فى كوبا من دول الكتلة الشرقية .. روس .. تشيكوسلوفاك .. بلغار .. ألمان .. صينيون .. كوريون .. إلخ .

وقلت وأنا ما زلت أضحك :

- لا .. أختيو !

أى مصر ..

واتسعت ابتسامة السيدة ، كأنها ازدادت اطمئناناً إلى ،
وصاحت :

- آه .. ناصر ..

قلت :

- نعم .. ناصر ..

قالت وهى تقترب منى بوجهها :

- هل تتكلم الانجليزية ؟

قلت :

- نعم ..

قالت فى مرح وبلغة إنجليزية سليمة :

- إذن ، لماذا لا تتكلم بها .. سأتيك بفنجان قهوة ساخن ..
ساخن جداً ..

واستدارت لتعد لى فنجان القهوة .. ولحت صليباً فضياً صغيراً معلقاً فوق صدرها الضخم .. وأنا أعرف أن الثورة الكويبية تركت الناس أحراراً فى ممارسة شعائر الدين ، ولكن ليس كل من يعلق الصليب فى كوبا متديناً ، إن كثيرين يعلقون الصليب ، فقط ليعلنوا أنهم ليسوا شيوعيين ، وكنوع من الاحتجاج الصامت .. نوع من المعارضة السلبية .. وقد حضرت الصلاة مرة فى إحدى الكنائس .. وكان اليوم يوم ثلاثاء ، وليس يوم الأحد ، ورغم ذلك كانت الكنيسة مزدحمة .. ولم تكن مزدحمة بالعجائز ، أى جيل ما قبل الثورة ، بل كان بين المصلين كثير من الشبان والشابات .. جيل الثورة .. وقال لى يومها أحد الأصدقاء : « إن بعض الناس يحرصون اليوم على التردد على الكنائس ، أكثر مما كانوا يحرصون قبل الثورة .. كنوع من المعارضة السلبية » !

وعادت السيدة الطيبة بفنجان القهوة ، وكان ساخناً فعلاً ، ربما كان أطعم فنجان قهوة ، ذقته فى كوبا .. أحسست وأنا أرتشفه كان القهوة تسرى فى أعصابى كلها وتذيب الإرهاق والرطوبة من جسدى ..

وهى لا تزال واقفة قبالتى تبخلق فى وجهى كسائحة تنتظر إلى مومياء توت عنخ آمون ..

وقلت لها وأنا أتفادى نظرتها وابتسامتها :

- إنك تعلقين الصليب !!

وربما فهمت ما أعنيه ، ومسحت على الصليب بأصابعها ، وقالت وابتسامتها تضيق :

- هذا .. من زمان !

قلت وأنا أحاول أن أكون خبيثاً :

قبل الثورة ؟

قالت بلا مبالاة :

- نعم .. قبل الثورة !

قلت :

- واللغة الانجليزية .. إنك تتكلمينها بطلاقة ..

قالت فى هدوء :

- من قبل الثورة أيضاً ..

قلت فى سذاجة الصحفى المبتدىء :

- وما رأيك ؟

قالت فى دهشة :

- رأى فى ماذا ؟

قلت :

- فى الثورة ..

وارتخت تعابير وجهها كأن أملها خاب بعد أن اكتشفت سخافة

السؤال . وقالت :

- لقد كان أذى واحداً منهم ؟

قلت فى دهشة :

- ممن ؟

قالت وهى تهز كتفها :

- من رجال فيدل .. فيدل كاسترو .

قلت وقد انتعش انتباهى :

- وأين هو الآن ؟

قالت بلا مبالاة أيضاً :

- قتل ..

قلت :

- كيف ؟

قالت كأنها لا تريد أن تستمر في الحديث :

- في معركة المونكادا ..

والمونكادا كانت قلعة عسكرية أيام حكم الديكتاتور باتستا ، تقع في مدينة سان تياجو دي كوبا عاصمة ولاية أورينتي في أقصى الجزيرة .. وقد هاجمها كاسترو ورجاله عام ١٩٥٣ بقصد الاستيلاء عليها ليتخذها نقطة ارتكاز يبدأ منها زحفه إلى هافانا ، ولكن الهجوم فشل ، واستطاع كاسترو أن يهرب ، واختبأ عند قسيس ، ورفض القسيس أن يسلمه للحكومة إلا بعد أن وعدت بأن تقدمه إلى المحاكمة ..

وارتفع صوت المرأة الطيبة هادئاً خفيضاً ، قائلة :

- لقد كان في السابعة عشرة من عمره .. كان يقيم معنا ، أنا وزوجي .. وكان كثير الصمت ، لم أسمع مرة يناقش زوجي .. ولكنه كان يقرأ كثيراً .. ويخرج دون أن أعرف إلى أين يذهب ، ولم يكن يهمني أن أعرف ، كان كل ما يهمني أن يعود .. وكان يعود دائماً .. إلى أن خرج مرة ، ولم يعد .. ذهب وقتل نفسه في الهجوم على قلعة مونكادا ..

وسكنت المرأة قليلاً ، ثم استطردت بنفس الهدوء ، كأنها تحلم :

- تصور خمسة وأربعين شاباً لا يزيد سن أكبرهم على الخامسة والعشرين يهاجمون ثكنة عسكرية .. لقد كان كل منهم يواجه خمسين جندياً مسلحاً .. مجانين !

قلت كأنني أصحح معلوماتها :

- لقد كان عدد الثوار ١٢٥ ، على ما أذكر ..

قالت بلا اهتمام ، ودون أن تنتظر إلى :

بعضهم احتل البيوت المحيطة بالقلعة .. وبعضهم احتل المستشفى القريب .. وبعضهم تاه في شوارع المدينة .. والذين هاجموا القلعة لم يزد عددهم على خمسة وأربعين بقيادة فيدل ..

وقلت كأنني أشجعها على الاستطراد في الحديث :

وقتل أخوك أثناء الهجوم ..

قالت في برود عجيب :

لا .. أسروه .. وعذبوه ليتكلم .. خلعوا أظافره ، وأحرقوا جلده ، ثم نزعوا إحدى عينيه ، وقطعوا إحدى أذنيه .. ولما لم يتكلم ، قتلوه ..

قلت كأنني أواسيها :

- لقد انتقموا لأخيك ..

قالت بنفس الهدوء :

- من ؟

قلت :

- الثوار ..

وهزت كتفها بلا مبالاة ، وقالت :

- الثوار قتلوا زوجي ..

وشهقت وأنا أغرق في الدهشة ، وصحت :

- لماذا ؟ .. كيف !؟

ونظرت إلى كأنها تتعجب لدهشتي ، وقالت في بساطة :

- كان من رجال باتستا .. واتهموه بعد الثورة بالاختلاس ، والرشوة والخيانة .. إنني لم أكن أعرف أن زوجي مرتشياً أو خائناً ، كل ما كنت أعلمه عنه أنه زوج طيب .. أنه خير الأزواج ..

قلت لها كأنني أواسيها :

- كان يجب أن تشفع له دماء أخيك !

قالت وهى تبتمس ابتسامة صغيرة :
- لم يكن ليبرى فى أن يشفع له أحد .. لقد ذهب وىارب مع جنود باتستا .

وسكنت وابتسامتها الصغيرة لا تزال معلقة على شفيتها ، ثم قالت كأنها تسائل نفسها :

- لقد تركوا باتستا يذهب وهو يحمل أطناناً من الدولارات ليعيش بها فى الخارج عيشة المليونيرات .. فلماذا لم يتركوا زوجى يذهب أيضاً ..

ثم هزت كتفها ، وقالت فى إهمال :
- لا يهم ..

وابتعدت لتخدم بعض الوافدين .. وأنا الأحقها بعينى دهماً .. ولم تكن دهمتى لما سمعته منها ، ولكن للبساطة التى كانت تحدث بها ، كأن كل ما حدث كان أمراً طبيعياً .. أن يقتل أخوها وهو يىارب مع كاسترو .. وأن يقتل زوجها وهو يىارب مع باتستا .. لا يهم .. كان سنة الحياة أن يستشهد الرجال دفاعاً عن مواقفهم .. لم يكن فى حديثها حقد ، ولا حزن ، ولا ندم .. فقط ذكريات .. ذكريات حوادث مرت .. والدهشة تكاد تقتلعنى من فوق مقعدى ..

وأشرت إليها بعد قليل ، وقلت وأنا أحاول أن أخفى انفعالى خلف ابتسامتى :

- هل أستطيع أن أطلب كوباً من اللبن الساخن ..

وفجأة التمتعت عينها ، واحتقن وجهها ، وقالت فى حدة عنيفة :

- ليس عندى لبن .. وليس فى بيتى لبن .. ألا تدرى .. ليس عندنا شىء .. كل شىء أصبح بالبطاقات .. ثلاثة أرباع رطل لحم

فى الأسبوع .. رطلان من الخضار .. أربعة أرطال أرز .. حذاءان فى السنة .. ثلاثة جوارب فى السنة .. قميصاً نوم فى السنة .. والبرتقال ، إنك لا تستطيع أن تشتري برتقالة إلا بشهادة موقع عليها من طبييين .. والبيض ..

وإزداد لمعان عينها ، واشتد احتقان وجهها ، وخبطت على حافة البار بيدها الثقيلة ، وصاحت :

- لقد كنت أفطر كل يوم بأربع بيضات مقلبات .. وكنت أتعشى بست بيضات .. عجة .. كنت أعيش بالبيض .. أتدرى ماذا حدث .. لقد حرّموا علينا البيض .. عام كامل لم نذق فيه طعم البيض .. ثم سمحوا لكل واحد بخمس بيضات فى الشهر .. هل هذا معقول .. انظر إلى .. هل تكفينى خمس بيضات فى الشهر .. لقد رفضت أن أكل البيض .. أعطيت نصيبى لابن شقيقى ، إنه أحق به منى ..

كانت تتكلم وكل قطعة من جسدها ترتعش .. تهتز .. وخيل إلى أن البناء الخشبى الذى نجلس فيه يهتز معها .. بل خيل إلى أن كوبا كلها تهتز معها ..

إنها لم تهتز وهى تحدثنى عن استشهاد شقيقها ، وعن موت زوجها .. ولكنها تهتز وهى تحدثنى عن حرمانها من اللحم والبيض .. وحديثها فيه حقد ، وفيه غل ، وفيه ثورة !! وابتعدت عنى بخطوات عصبية كأنها تخشى أن تحرقنى بثورتها ..

وسرت وراءها حتى اقتربت منها ، وقلت فى اضطراب كأنى أخاف فعلاً ثورتها :

- إنى لا أعرف طريقى إلى الفندق .. هل تدلينى ؟

وقالت وهى لا تزال محتدة :

- أى فندق ؟

قلت :

- هافانا ريفيرا ..

وقلبت شفتها السفلى فى امتعاض وقالت :

- بيدرو يوصلك إلى هناك .. إن عنده بسكليت !

وجلست فوق العجلة الخلفية من دراجة بيدرو ، وأوصلنى إلى الفندق ، ووجه المرأة الطيبة يشغل كل خيالى .. وكل كلمة سمعتها منها ترن فى أذنى ، كما ترن المطارق الثقيلة على الأبواب المغلقة ..

ولم أستطع النوم ..

كان يجب أن ألتقى بالمرأة الطيبة مرة أخرى .. كنت أحس أنى لم ألتق بكوبا إلا عندما التقيت بهذه المرأة .. واستطعت أن أهرب من مرافقى فى نفس المساء ..

وذهبت إليها فى البيت الخشبى العتيق ..

ووقفت أرقبها من بعيد .. كانت مرحة أكثر منها فى الصباح .. وكانت تضحك ضحكات كبيرة .. وتخطو كأنها ترقص التشاتشا .. وما كادت تلمحنى حتى صاحت فى تهليل :

- ناصر ..

واقتربت منها ، وقبل أن أجيئها قالت من خلال ضحكتها الكبيرة :

- هل قرأت صحف الصباح ..

وهزرت رأسى : لا ..

قالت وهى تنتظ كطفلة وصوتها يرن كالزغردة :

- لقد أباحوا البيض .. أنزلوا إلى الأسواق خمسين مليون بيضة ، وتستطيع أن تشتري منها ما تشاء .. بئس رخيص .. إن

بئس البيضة اليوم نصف ثمنها زمان .. أتدرى كم بيضة أكلت اليوم .. وحتى الآن ..

وأشارت بأصابع يدها أمام وجهى :

خمسة عشر بيضة .. إن بيدرو يقول إنى ساموت لو أكلت بيوضة واحدة زيادة !!

ورنت ضحكتها تملأ أرجاء البيت الخشبى العتيق ، وخيل إلى أن كوبا كلها تضحك ..

ثم قالت وهى تهز رأسها فى وقار العالم :

- إنى أعرف فيدل .. إنه صادق فى وعده .. لقد سبق أن وعدنا بأن يبيع البيض ، بعد أن يتم مشروع تربية الدواجن ، وقد تم المشروع .. من كان يظن أن هؤلاء الشبان يستطيعون أن يفعلوا كل ذلك ..

ثم مالت على أذنى وقالت وكأنها تهمس :

- لقد سمعت أنهم سيبيعون اللحم فى الشهر القادم ..

وبسرعة وخفة أقلت أمامى بفنجان قهوة .. وكانت قهوة باردة .. وناداهما بعض الزبائن ..

ووقفت أنظر إليها من بعيد .. كانى أنظر إلى كوبا ، والأمل الكبير ..

الغريب

زوجة من

الشاطيء

الأخر ..

الدار البيضاء .. ولم تكن المرة الأولى التي أزور فيها الدار البيضاء . زرتها من قبل خمس أو ست مرات خلال العشر سنوات الأخيرة .. وفي كل مرة يدهمني نفس الشعور .. الشعور بالضيق .. ليس الضيق بين شوارع وأزقة المدينة ، ولكن الضيق في شخصية المدينة ..

وبعض المدن الكبيرة قد يكون لها شخصية ذاتية ، كلندن مثلاً ، وبعضها قد يكون له شخصية عالمية ، انصهرت فيها مختلف الشخصيات وتنتج عن انصهارها شخصية عالمية متميزة ، كجنيف في سويسرا مثلاً ، وبعض المدن قد تنقسم إلى شخصيتين ، شخصية حديثة ، وشخصية قديمة ، والحديث له كيانه ، والقديم له كيانه ، كالقاهرة .. ولكن الدار البيضاء ليس لها شخصية على الإطلاق .. لا شخصية ذاتية ، ولا شخصية عالمية ، ولا هي منقسمة إلى شخصيتين لكل شخصية كيانهها .. إنما هي مركز صراع عنيف بين شخصيتين متنافرتين ، تمتزجان في جزء من كيانهما ، وتتباعدان في جزء آخر ، ثم تعودان وتتباعدان حيث امتزجتا ، وتمتزجان حيث ابتعدتا .. إن المدينة كنقطة التقاء النيل بالبحر الأبيض عند رأس البر ، حيث تتلون المياه بلون لا هو لون مياه البحر ، ولا هو لون مياه النيل ، وإنما هو لون لا شخصية له ..

وكنت أحس بضيق الشخصية في الحوارى والأزقة ، وفي الشوارع الواسعة الأنيقة ، وفي الأسماء المختلطة العجيبة التي تحملها يافطات الدكاكين وفي الحروف العربية التي تحمل خطوط الحروف اللاتينية ، وفي الحروف اللاتينية التي تحمل خطوط الحروف العربية ، وفي أردية الناس ، وفي لغتهم ، وتصرفاتهم ، وبيوتهم ومقاهيهم ، وفي الناس أنفسهم .. إنى لم ألتق بإنسان من أهل الدار البيضاء إلا وأحسست بالمعاناة القاسية التي يتحملها حتى يحدد شخصيته .. إنه يفكر بالفرنسية ، ويترجم أفكاره إلى اللغة العربية ، ثم يفكر بالعربية ويترجم أفكاره إلى اللغة الفرنسية .. دون أن يقصد ، أو يتعمد .. إنما هي محاولة يائسة تلقائية يبذلها للخلاص من الصراع العنيف داخل نفسه بين الشخصيتين المتنافرتين .. ويتعب ، وأتعب معه .. ونكف عن الحديث فجأة لا لأن الحديث أنتهى ، ولكن لأننا تعبنا ..

وكانت هذه المعاناة تنتقل إلى .. كنت أنا الآخر أعانى ، وأنا أحاول أن أفرز إحدى الشخصيتين من الأخرى حتى أتعامل معها .. ولكنى كنت دائماً أفضل ، وأجد الكلمات الفرنسية تقفز على لساني مختلطة بالكلمات العربية الفصحى ، وبالكلمات العربية العامية .. وأجد محاولات التفاهم تتردد بين محاولة التفاهم مع عقلية فرنسية ، ومحاولة التفاهم مع عقلية عربية ..

ورغم ذلك كان هناك شيء يشدنى دائماً إلى الدار البيضاء .. ربما لأن الضيق لم يفقد المدينة خفة دمها .. وربما لأنى أريد أن أطمئن إلى نهاية المعاناة التي يعانيها الناس .. وربما لأنى كنت أحن دائماً إلى سماع أناشيد البربر فى ملهى « الريصانى » .. وربما لأن لى فى المدينة كثيراً من الأصدقاء ، أقربهم إلى قلبى هو صديقى « بوليب » ..

و « بوليب » اسمه فى الأصل « أبو طالب » ولكن الضياع مسخ الاسم فأصبح « بوليب » .. وهو إنسان طويل .. عريض .. قوى .. تضج العافية فى وجنتيه .. وتشع عيناه بذكاء التاجر الشاطر .. وهو يدير شركات تجارية كثيرة ، ويمتلك أكثر من خمسة وعشرين داراً للسينما موزعة فى بلاد المغرب .. ورغم ذلك فهو إنسان طيب ، مرح ، مقبل على الحياة ، يحب أن يخدم الناس ، وتحس أنه يتمتع بخدمتهم ..

وقد التقيت به فى زيارتى الأولى للدار البيضاء منذ تسع أو عشر سنوات ، وكان يرتدى الزى المغربى .. الجلابب المعروف والطربوش الوطنى والمركوب الأبيض .. وأصر يومها على أن يدعوتى للغذاء فى بيته .. واعتقدت أن إصراره يرجع إلى أنه التقى بى فى صحبة أحد وزراء المغرب ، أو لأن دور السينما التى يملكها سبق أن عرضت أفلاماً عربية مأخوذة عن قصصى ، ولكنى بعد أن عرفته تبين أنه كريم بطبعه ، وأنه بطبعه يحب الناس ويسعى وراء كل صداقة جديدة ..

وبهت عندما دخلت بيت بوليب لأول مرة .. لقد استقبلنى فى بهو كبير على الطراز العربى الذى يرجع إلى أيام الأندلس .. تتوسطه نافورة صغيرة من الرخام المحلى بالفسيفساء .. والجدران كلها مغطاة بالرخام ومنقوش عليها بالمينا الزرقاء أبيات من الشعر القديم ، والسقف عال تتوسطه قبة محلاة بالزجاج الملون ، يعكس ظلالات هادئة مريحة ، حمراء ، وخضراء ، تكسو البهو كله .. وحول الجدران أرائك حريرية عريضة تنتثر عليها وسائد من ريش النعام .. وما كدت أجلس على إحداها حتى غطست « كائى أغطس فى قطعة من السحاب ..

وبوليب فى زيه الوطنى الفضفاض ومركوبه الأبيض .. ثم جاءت السيدة زوجته .. وأحسست برموشى تهتز بسرعة فوق موشى كائى أحاول أن أفيق من حلم أسطورة من أساطير الأندلس .. إنها سمراء ، رقيقة القد ، دقيقة الملامح ، تكاد ملامحها تختفى فى ظل عينيهما المكلتتين الهادئتين .. وشعرها ينساب على رأسها ويرقد على كتفها فى دعة كأنه قط أسود أليف يقبل عنق صاحبه .. وكانت ترتدى القفطان المغربى الرائع .. أزرق فى لون السماء الصاقية ، موشى بخيوط الفضة ، وحول وسطها حزام من الذهب تتوسطه ياقوتة حرة حمراء ، وفوق القفطان « ديفينا » من الحرير الشفاف أشبه بغلالة من نسيج النسيم .. إنها حلم حلم الملك شهريار .. أسطورة تنطلق من بين صفحات ألف ليلة وليلة .. وقد جاء معها ولداها « سى أحمد » و « سى المهدي » .. يرتديان أيضاً الزى المغربى والمركوب الأبيض ..

سى أحمد فى الرابعة عشرة من عمره .. وسى المهدي فى الثانية عشرة و « سى » يطلقونها للتدليل ، كما يطلقونها للإكبار . وعانيت صعوبة وأنا أحاول أن أقوم من « غطستى » بين وسائد الريش ، لأصافح زوجة بوليب وولديه .. ومدت لى يداً ناعمة رخية .. ومد كل من سى أحمد ، وسى المهدي يداً ثابتة قوية فيها اعتزاز أكبر من عمرهما ..

وعدنا نغطس فى وسائد الحرير .. وزوجة بوليب قليلة الكلام .. وولداها صامتان .. كأن العائلة كلها قد وهبت عقولها وأستنهت لرب الأسرة .. لبوليب .. وبوليب يبذل مجهوداً كبيراً وهو يحدثنى حتى يخلص لسانه من الكلمات الفرنسية ، ويبذل مجهوداً أكبر حتى يحدثنى باللهجة المصرية .. وأنا معه أبذل نفس

المجهود حتى أنتقى الكلمات التي يسهل عليه فهمها ..
ثم جاء الغداء على صينية فضية كبيرة ، وضعت أمامنا على حامل من خشب الأبنوس المطعم بالصدف .. خروف صغير مشوى ، على تل من « الكسكسى » .. وحول دائر الصينية أطباق مختلفة من الخضروات ، والسلطة وأصناف الصلصة التي تضاف إلى الكسكسى ، وكوبات أنيقة مملئة باللبن المضروب .. وبدأنا نأكل على الطريقة المغربية .. بأصابعنا . ولم أر فى حياتى أرق ولا أرق من أصابع زوجة بوليب ، وهى تمتد برفق وخفر لتتنزع قطعة من لحم الخروف ، أو لترفع حفنة من السلطة .. كأنها كانت تستأذن الخروف قبل أن تنزع لحمه ، وكأنها كانت ترفع السلطة لتصنع منها باقة تزين بها صدرها ..

وانتهينا من الغداء .. وحديثنا ممتع ، وضحكاتنا هادئة .. ثم جاءت فتاة تحمل إبريقاً من الفضة ، وخلفها خادم يحمل وعاء من الفضة أيضاً وصبت الفتاة الماء على يدي ، فى رفق ، وناولتنى منشفة .. ثم جاء الشاي .. الشاي الأخضر .. كم كوباً شربت .. ربما ثلاثة أو أربعة .. وأنا سعيد مرتخ .. لم أعد أريد شيئاً إلا أن أبقى هكذا .. فى هذا الجو العبقري ، وحولى بوليب وعائلته فى أريائهم الوطنية الرائعة ، وآدابهم العربية الراقية ..

وتوطدت الصداقة بعد ذلك بينى وبين بوليب .. وأسرنى بخدماته .. كنت أخرج فى الصباح من فندق « مرحبا » لأذهب إلى مكتبة .. وهو الذى يتولى إرسال برقياتى ، وإعداد تقفلاتى ، وتحويل نقودى ، وتحديد مواعيدى ، ويرسل سكرتيره معى إلى السوق ليساعدنى فى مشترياتى .. أصبح بوليب هو كل شيء فى القاهر البيضاء ..

وغادرت الدار البيضاء بعد زيارتى الأولى لها وأنا أحمل بوليب وزوجة بوليب فى قلبى .. ولم نتراسل .. ولكنى كنت أنتظر دائماً أن يزور القاهرة لأرد له بعض جمائله .. ولكنه لم يأت إلى القاهرة أبداً ..



وبعد عامين ، هبطت الدار البيضاء مرة ثانية وأنا فى طريق عودتى إلى القاهرة عائداً من جمهورية مالى .. وما كدت أدخل عرقتى فى فندق « مرحبا » ، حتى رفعت سماعة التليفون وطلبت بوليب .. وسمعت صوته يقول فى حزم رجل الأعمال :

– من ؟

قلت ضاحكاً :

– حاول أن تتذكر ..

قال فى عجلة كأنه لا يطيق الهذر :

– أرجوك .. من ؟

قلت وأنا لا أزال أضحك :

– نسيته يا بوليب !؟

وفجأة صرخ مهلاً :

– إحسان ..

ثم انطلقت الكلمات الفرنسية مختلطة بالعربية المغربية وبالعربية المصرية ، ترحب بى .. ولم أفهم نصف كلامه ، ولكنى فهمت أنه يعدنى بأن يمر على فى الفندق فى المساء .. وانتظرته فى بهو الفندق ..

وجاء ..

ولم أعرفه لأول وهلة .

كان يرتدى الملابس الإفريقية .. أنيقاً .. أناقة متمعمة ، مبالغ فيها .. وكان يسير منفوشاً كما لم أعوده ، وفي ذراعه سيدة شقراء جميلة ، لفت أعناق كل من فى الفندق ..

ووقفت أمامه وابتسامتى حائرة على شفتى كأنى ما زلت أتساءل : هل هذا هو صديقى بوليب .. وقطع على بوليب حيرتى بأن شدنى إليه واحتضننى وهو يهمل مرحباً .. ثم قدمنى إلى السيدة التى معه قائلاً بالفرنسية :

- مدام بوليب ..

وتوقفت يدى الممدودة وهى فى منتصف الطريق إليها ، والتفت إليه فى دهشة حادة ، كأنى صعقت ، ورد بوليب على دهشتى ضاحكاً :

- تزوجنا من ثمانية أشهر .. إننا ما زلنا فى شهر العسل ..

ثم لف ذراعه حول كتفها وجذبها إليه قائلاً :

- أليس كذلك يا حبيبتى !

وأكملت يدى طريقها إلى يدها ، وصاقتها قائلاً بنصف ابتسامة :

- تشرقنا ..

وصاغتتى بعينين جريئتين قائلة فى لهجة باريسية صميعة وهى تضغط على يدى :

- بوليب حدثنى عنك ..

وجلسنا حول مائدة فى بهو الفندق وطلب بوليب ثلاثة من كنؤس المارتينى .. وأخذت أرتشف كأسى ، وعينائى تتسللان إلى الزوجة الجديدة .. إنها جميلة فعلاً .. ولكنه جمال صريح مكشوف ، كهذا الجمال الذى تراه على صفحات مجلات الأزياء

الفرنسية .. وهى أنيقة .. ربما كان الثوب الذى ترتديه هو آخر «سيدة» صاحبها باريس .. أناقة جريئة .. وربما كانت أناقة جديدة عليها ، وقد شعرت بذلك لكثرة المجوهرات التى تتحلى بها .. خاتم «سولتير» .. وسولتير آخر فى اليد الأخرى .. ودبلة من قصوص الماس «الباجت» .. ودبوس من الماس على كتفها .. ودبوس آخر فى شعرها .. وعقد من اللؤلؤ .. وسوار من اللؤلؤ المزين بحبات الماس .. كأنها فترينة محل «كارتييه» جواهرجى باريس المعروف .. والتفت إلى بوليب كأنى أسأله : كم دقعت فى كل ذلك .. ولكن بوليب كان مشغولاً عنى بالتهام زوجته بعينه كأنه «يمز» بها بين رشقات كأس المارتينى .. ووجدت نفسى أتساءل : ما الذى يجعل رجلاً مثل بوليب يتخذ زوجة أخرى ؟! .. ربما لأنه غنى ، والغنى يغرى صاحبه بالنساء ، كما يغرى به النساء .. ولكن لماذا اختارها زوجة فرنسية ؟ .. ولم أحاول أن أناقش هذا التساؤل من ناحية القومية العربية .. فمعرفتى ببوليب دلتنى على أن إحساسه بالقومية العربية لا وجود له ، ولكنه يحس بإسلاميته ، والعواطف التى تفرقه عن الفرنسيين هى عواطف دينية وليست عواطف قومية .. كالعواطف التى بين الكاثوليك والبروتستانت .. بل أقل حدة ، لأن إحساس بوليب بإسلاميته إحساس ضعيف .. إحساس التاجر الذى يعرف الله فى حدود رواج تجارته أو كسادها .. ولكنى حاولت أن أناقش تساؤلى من الناحية الإنسانية .. إنسانية بوليب وذوقه كإنسان .. ما الذى يجعل إنساناً يعيش فى هذا الجو العبقري الذى لسته فى بيت بوليب ومع هذه الزوجة المغربية الرائعة التى تمتاز بهذا الجمال السحري الذى يحمل فى ثناياه أكثر مما يبدو منه .. ما الذى يجعل

هذا الإنسان يترك كل ذلك ليجلس حول مائدة مكشوفة مع جمال مكشوف تنتهكه كله في نظرة واحدة ، ليتناول كئوس المارتيني بدلا من كئوس اللبن المضروب !!؟ ..

وأحسست كائى أهر رأسى إشفاقاً على بوليب ..

ونزعنى من خواطرى صوت الزوجة الجديدة .. إنها تحتكر الحديث كله لها .. وتحدث فى مواضيع جريئة .. وعيناها تتحدثان معها ، ويدها .. وكل قطعة من جسدها تشترك معها فى الحديث .. والحديث كله باللغة الفرنسية ، لا تقفز فيه كلمة عربية واحدة .. وبوليب يكتفى بالضحك ، والتعليقات العابرة .. وبدأت تشكو فى حديثها من غيرة زوجها عليها .. وتروى نوادر عن هذه الغيرة .. وأنا أعتقد أن الزوجة عندما تحدث صديقاً عن غيرة زوجها فكانها تغريه بأن يشترك معها فى إثارة غيرته .. فبدأت أحترس .. ولكن احتراسى لم يمنع من رفع الكلفة بينى وبينها منذ الجلسة الأولى .. وسمعتها تنادىنى باسمى مجرداً ، ووجدت نفسى أنادىها باسمها .. مونيك .. رغم أنى لا أعرف اسم الزوجة الأولى .. المغربية .. حتى اليوم ..

واقترحت مونيك أن نذهب لقضاء السهرة فى ملهى الـ « بلكون » .. وقمنا وركبنا سيارة بوليب « الستروين » الكبيرة .. جلس بوليب فى مكان القيادة ، وجلست مونيك بجانبه ، وأفسحت لى مكاناً لأجلس بجانبها .. ولكنى اعتذرت وأصررت على أن أجلس فى المقعد الخلفى .. لا تادباً منى ولكن لأنى خفت .. خفت من مونيك .. خيل لى أنى لو التصقت بها ، فسأحترق ..

والـ « بلكون » .. علبة من علب الليل ، أقيمت على شاطئ البحر ، على الطراز المكسيكى ، تضح فيه موسيقى « الستريو »

بلا توقف .. خافطة الضوء معبأة بالدخان ورائحة النبيذ ، تلتصق فيها الأجساد حتى تذوب فى جسد واحد ..

وبصعوبة وجدنا وسط الزحام والظلام جزءاً من مائدة نجلس حوله .. وبدأت مونيك تهز قدميها على نغمات التشاتشا .. ثم بدأت تنظر لى ، بعينيها الجريئتين .. وتعمدت أن أتجاهل نظرتها .. إلى أن قالت لى :

- قم .. ارقص ..

قلت كاذباً :

- آسف .. لا أعرف الرقص ..

كنت لا أزال أخاف الالتصاق بها حتى لا أحترق ..

وقالت مونيك كأنها تستخف بى :

- ألا ترقصون فى مصر ؟

قلت :

- ليس كلنا ..

وقبل أن أتم كلامى ، كان بوليب قد قام وجذب مونيك إلى حلبة الرقص .. وجلست أرقبه وهو يرقص التشاتشا كأنه فيل يرقص على نغمات الطبل البلدى .. وضاعت من خيالى كل شخصية بوليب .. ضاع الرجل المغربى .. والجلباب الواسع .. والطربوش الوطنى .. والمركوب الأبيض ..

وعاد بوليب وخطب على كطفى قائلاً :

- ألا تستطيع حقاً أن ترقص ؟

قلت :

- لا ..

قال وهو ينظر لى كأنه يشفق على :

- لا أحد في عالم اليوم لا يرقص ..
وخيل إلى أنه كان سعيداً وأنه أحبني أكثر لأنى لم أكن ليلتها
أرقص .. ثم ما لبث أن أخذ زوجته وقام يرقص بها مرة ثانية ..
وهى تتلوى أمامه فى جراءة .. وتتبادل الصرخات مع بقية
الراقصين .. والدخان يحرق عيني ، ورائحة النبيذ تطبق على
صدرى .. فأخرجت قلبي وكتبت على قطعة من الورق : « تعبت ..
ونذهبت » .. وتركت الورقة أمام مقعد بوليب ، ثم تسللت إلى
خارج علبة الليل .. وتركت بوليب وزوجته يرقصان ..
وعدت إلى غرفتي ..

وفى الصباح التالى فى حوالى الساعة الحادية عشرة ، ذهبت
إلى مكتب بوليب .. وفوجئت عندما لم أجده هناك .. لقد عودنى
بوليب أن يكون فى مكتبه فى الساعة الثامنة على الأكثر ، وكان
يعيب على كسلى عندما أعدد له موعداً فى العاشرة ..

وجلست مع سكرتيره سى عبد الله ، أسأله :

- أين بوليب ؟

وهز كتفيه بلا ميالة قائلاً :

- لعله لا يزال نائماً ..

قلت :

- ولكنها ليست عادته ..

قال فى أسى :

- لقد تغير بوليب ..

وسألتها معاً كأنها وقفة حداد على ذكرى بوليب .. ثم عدت

أسأل سى عبد الله :

- هل طلق زوجته الأولى ؟

قال وهو يتنهد فى أسى :

- لا .. إنها فى بيتها مع أولادها .

•••

ومر عامان .. ربما ثلاثة ..

وعدت إلى الدار البيضاء ..

وجاء بوليب ليرحب بى فى الفندق بعد أن عرف بوصولى ..

جاء وحده ، مرتديا الزى الإفرنجى ، أنيقاً كما رأيته آخر مرة ..

ولكنى منذ الوهلة الأولى أحسست أنه تغير .. إنه يبدو مهموماً ..

انطفاقت لمعة عينيه .. وخبا المرح على وجنتيه .. وذابت ابتسامته

بين شفثيه .. ويتكلم فى تكاسل وقرق ، ولا يبذل مجهوداً لينتقى

لى الكلمات التى تساعدنى على فهمه .. لا يبدو كأنه يهتم بفهمى

له ..

ولم تطل زيارته لى .. قام سريعاً لينصرف بعد أن دعانى

للغداء معه فى اليوم التالى .. دون أن يعرض على خدماته كما

عودنى .. وعندما أعطيته ما معى من جنهيات استرلينية ليحولها

لى بسعر السوق السوداء .. أخذها بلا حماس .. رغم أنه تعود أن

يصرخ فى وجهى كلما حاولت أن أبذل نقوداً بالطريق الرسمى ..

وقال وهو يدس النقود فى جيب سترته الخارجى :

- سأرسل لك قيمتها مع عبد الله .

وانصرف وأنا أتبعه بعينى .. إنه يسير وكتفاه منهارتان كأنه

كبير عشر سنوات فى عامين ..

وعندما جاء سى عبد الله ليبرد إلى النقود .. سألته فى لهفة :

- ماذا جرى لبوليب .. إنه يبدو بائساً ؟

قال فى قرق :

- إنها مونيك .. إنها تتعس أيامه ..

قلت :

- ولماذا تتعسه .. إنى واثق أنه يدلها أكثر مما تستحقه من دلال ؟

قال :

- إنها الزوجة الثانية ..

قلت :

- تقصد أنها تغار من زوجته الأولى ..

قال :

- لا .. الزوجة الأولى أمرها سهل .. ولكنها تغار من أولاده ..
الأولاد وحدهم هم الذين كانوا يأخذونه منها ، لقد أخذته كله
ما عدا حبه لأولاده .. وهى لم تنجب منه حتى تستطيع أن
تعوضه عن أولاده من الزوجة الأولى بأولادها .. إنها عاقر ..
أتدرى ماذا فعلت .. لقد أخذت أولاده .. أخذت سى أحمد وسى
المهدى ليعيشا معها .. حتى تكمل لها السيطرة عليه ..

قلت فى دهشة :

- وهل رضى بوليب أن يأخذ الولدين من أهمها ليعيشا مع
امرأة غريبة ؟

قال وهو يلوى شفتيه :

- لقد اقتنع بأن مونيك أكثر ثقافة من زوجته الأولى ، وأقدر
على تربية أولاده ..

قلت :

- إنه مجنون ..

قال :

.. إنه ضعيف ..

وفى اليوم التالى ذهبت لتناول الغداء فى بيت بوليب .. بيت
زوجته الفرنسية .. إنه بيت فخم .. كل قطعة فيه تساوى ثروة ..
ولكنه بيت بلا شخصية .. ركن منه أثث على الطراز المغربى ..
وركن آخر أثث على طراز لويس الخامس عشر .. وهنا قطعة من
الأثاث الصينى .. وهنا تمثال هندى .. إنه يبدو كبيت رحالة حمل
فى كل رحلة قطعة يزين بها بيته .. أو يبدو كدكان عاديات ..

واستقبلنى بوليب وهو مرتد الزى الإفرنجى ، وجلسنا على
مقاعد لويس الخامس عشر .. ثم جاءت مونيك .. جاءت مرتدية
الزى المغربى .. قفطان أحمر محلى بخيوط الذهب ، وحول وسطها
حزام ذهب محلى بالجواهر .. ولم يؤثر فى الزى المغربى هذه
المرة .. إنى بمجرد أن نظرت إلى شعر مونيك الأصفر ، وعينيها
الجرثيتين ، أحسست أن القفطان المغربى ، فستان سواريه
استورد من باريس .. أكثر من ذلك ، خيل إلى أن مونيك ستقوم
بين دقيقة وأخرى ، وتخلع القفطان وهى ترقص رقصة
« الاستبرتيز » التى تقوم فيها الراقصة بخلع ثيابها حتى تبدو
بأرية .

وبوليب لا يزال تعيساً مهموماً ، كتفاه منهارتان ، ولا يتكلم
كثيراً .. مونيك هى التى تتكلم دائماً ..

وقمنا وجلسنا حول مائدة « أمبير » أى على الطراز
الامبراطورى الضخم .. وأمام كل منا مجموعة من الشوك
والسكاكين والملاعق والكؤوس .. وكان الطعام مغربياً .. كسكى
باللحم والخضروات .. ولكنى عندما أكلت الكسكى بالطريقة
الأوربية .. أحسست أن طعمه تغير .. أصبح كطعم الأرز
الفرنسى ..

ولم يجلس سى أحمد وسى المهدي معنا لتناول الغداء ،
ولكنهما جاءا بعد الغداء .. إن قامتيهما طالتا .. سى أحمد الآن
تجاوز السادسة عشرة .. وعلى وجهيهما تعابير جامدة ، وفي
عيونهما نظرات حادة ..

• وصافحاني في قوة ورجولة ..

وحدجا مونيك بنظراتهما الحادة ..

ولم يلتفتا إلى أبيهما ..

وجلسا صامتين ، كل منهما ينظر إلى قدميه ، إلى أن التفتت
مونيك إليهما وقالت بلهجة أمرة :

- أظن حان وقت المذاكرة ..

ولم يردا عليها .. قاما في صمت ، وعادا يصافحانني في قوة
ورجولة .

وقلت لهما :

- أرجو أن أراكما قريباً في مصر .

وقال سى المهدي باللهجة المغربية :

- إن أراد الله ..

ونظر سى أحمد - الأخ الأكبر - في وجهي بعينين ثابتتين ،
وقال في حزم :

- سترانا في مصر .. مؤكدا أننا سنذهب إلى مصر ..

وأخذتني اللهجة القوية التي تكلم بها ..

واستأذنت بعدهما بوقت قصير ، وخرجت من بيت بوليب ،

وأنا مقبوض الصدر ..

وبعد يومين كنت في مكتب بوليب ، وأخذني سى عبد الله من
زراعي وانتحى بي ركناً ، وهمس في أذني وعيناه تضحكان

ضحكة كبيرة ، وشفتاهم تبتسمان ابتسامة أكبر :

- أتدرى ماذا حدث .. لقد ضرب سى أحمد وسى المهدي

زوجة أبيهما ، ضرباً مبرحاً .. سلمت أيديهما .. إنهما رجال ..

سى أحمد وسى المهدي ..

قلت في دهشة :

- شرباها .. لماذا ؟

قال ضاحكاً :

- لأن إنساناً ما ، كان يجب أن يضربها منذ زمان طويل ..

قلت :

- وماذا فعل بوليب ؟..

قال :

- لقد أعاد الولدين إلى أمهما ..

قلت :

- وماذا فعلت مونيك ؟..

قال ضاحكاً :

- إنها تصرخ وتولول منذ نهار أمس .. أتدرى ماذا تريد

الآن ؟.. إنها تريد أن ترسل الأولاد إلى مدرسة داخلية في

فرنسا ، حتى لا يراهما أبوهما .. وبحجة أن يتعلما هناك الأدب ..

قلت :

- وهل وافق بوليب ؟..

قال :

- العائلة هائجة في وجهه .. عائلة زوجته الأولى .. وسى

أحمد وسى المهدي رفضا الفكرة ، وهددا بالهرب .. وبوليب نفسه

ليس مقتنعاً بها ..

وامتلاً قلبي بالأسى حزناً على بوليب .



وعدت إلى الدار البيضاء منذ بضعة شهور .. أى بعد ثلاث سنوات من زيارتي الأخيرة لها .. واتصلت ببوليب فى مكتبه .. ورد على سى عبد الله ، وقال لى إن بوليب مريض فى بيته ، وإنه سيبلغه بخبر وصولي ..

وبعد قليل عاد سى عبد الله واتصل بى ، وقال لى إن بوليب يدعونى لتناول الشاى معه ، وإنه - أى سى عبد الله - سيمر على بعد نصف ساعة ليصحبني إلى هناك ..

وفى الطريق أخذت أسأل سى عبد الله عن أحوال البلد وأحوال العائلة وأجلت سؤالى عن مونيك ، لأنى أعلم أنه يكرهها ، ولم أرد أن أظهر له اهتمامى بها .. وأخيراً سألته :

- وكيف حال مونيك ؟

وأجاب بلا مبالاة :

- ماتت ..

والتفت إليه وصحت فى دهشة :

- ماتت ؟ كيف ؟! ..

قال وهو لا ينظر إلى :

- كلنا ستموت يوماً ..

قلت :

- ولكنها شابة !؟

قال :

- حتى الشبان يموتون ..

وسكت كأنى أترحم على مونيك ..

وزم سى عبد الله شفقتيه ، كأنه قرر ألا يعود إلى الحديث عنها .. وبدأ يسألنى عن أخبار رحلتى وأحوال مصر حتى يغير مجرى الحديث .. ولكنى بعد فترة سألته فجأة :

- ماذا جرى لبوليب بعد موت مونيك ؟

والتفت إلى سى عبد الله وقال بحدة كأنه يبعد شبحاً يخاف أن

يطوف بى :

- لا أحد يستطيع أن يمس بوليب إنه صاحب نفوذ فى جميع

الدوائر .. والناس كلهم يحبونه و ..

وسكت عن كلامه مرة واحدة ، كأنه تنبه إلى أنه قال كلاماً

أكثر مما يجب أن يقول ..

واحترت ..

احترت فى موت مونيك ..

كيف ماتت ؟!

وعبثاً حاولت أن أقنع سى عبد الله بالكلام ..

ووصلنا إلى بيت بوليب ..

البيت الذى زرته فيه عندما التقيت به لأول مرة .. البيت

المغربى .. وأدرت عيني فى البهو الفخم .. كأنى أقبل النافورة التى

أوحشتنى ، والجدران الرخامية المذهبة .. والسقف ذا الزجاج

الملون ..

واستقبلتنى بوليب بالزى الوطنى .. الجلباب المغربى ..

والطربوش الأحمر .. والمركوب الأبيض .. ومد لى يده اليسرى

بصافحنى بها ..

إن يده اليمنى ترتعش ..

إنها يد مشلولة ..

وعلى شفثيه ابتسامه هادئة حزينة .. ابتسامه رجل أدى واجبه وانتهى ..

وغطسنا فى الوسائد الحريرية ..

وترددت .. هل أعزیه فى مونيك .. أم ادعى أنى لم أسمع بخبر موتها إلى أن يذكره لى ..

وفضلت أن أسكت .. وتكلم بوليب .. ولسانه ثقيل كأنه ينزع الكلمات من بئر عميقة ..

تكلم طويلاً ..

ولم يذكر شيئاً عن مونيك ..

ولكنى كنت كلما وقعت عينى على يد بوليب المرتعشة خيل إلى أنى أرى جثة مونيك ترتعش فى قبرها ..

وجاء سى أحمد وسى المهدي .. إنهما الآن رجلان .. سى أحمد فى حوالى العشرين من عمره .. وكلاهما مرفوع الرأس .. تشتعل

ملامح وجهه بجمال القوة والحماس .. وعيونهما تنطلق فى ومضات كأنها طلقات الرصاص .. ربما كانت رصاصة منها هى

التي قتلت مونيك ..

وتكلم سى أحمد طول الوقت .. تحدث فى عريية أكثر وضوحاً من عريية أبيه .. وهو الآن يعمل فى مكان والده ، وكان يحدثنى

عن المتاعب التي يلقاها فى التبادل التجارى مع مصر .. وقال بحماس :

- إنكم تتحدثون كثيراً عن الوحدة العربية .. وتعتقدون أن السياسة هى التي ستوحد البلاد العربية ، وأنا أقول إنها

التجارة .. لن يوحد البلاد العربية إلا فتح أبواب التجارة بينها .. تصور .. إن أسهل علينا ألف مرة أن نتاجر مع فرنسا اليوم من

أن نتاجر مع مصر .. هل هذا كلام .. تعقيدات ، وحواجز ، ثم لقول وحدة ..

وكان يتكلم وعيناي تقعان بين الحين والحين على يد بوليب المرتعشة ..

وجاءت الزوجة المغربية الرائعة مع صينية الشاي .. فى ثوبها المغربى الرائع .. وخيل إلى أنها أكثر جمالاً ، وأكثر شباباً ، وأكثر

دعة ، عما رأيتها أول مرة منذ أكثر من سبع سنوات .. وشعرها الاسود مسترسل فوق رأسها راقد فوق كتفها كالقط الأليف ..



وغادرت الدار البيضاء ..

ويد بوليب المرتعشة لا تزال تملاً خيالى .. والرجولة القوية تنطلق من عيون سى أحمد وسى المهدي .. والجمال والدعة

تحملهما الزوجة والأم المغربية ..

وموت مونيك يحيرنى ..

السويد

طلاق الشاب
الطويل الأسمر...

أنا الوحيد الذى كنت أنتظر طلاق صديقى عبد الله رفعت بين كل يوم وآخر .. كان كل الناس فى القاهرة يلفونه بنظرات الحسد ، ويشهقون كلما رأوه بصحبة زوجته ، والنساء تنتهد فى حسرة .. ورغم ذلك .. كنت أنتظر طلاقه بين كل يوم وآخر .. ربما لانى كنت الوحيد الذى حضر يوم زواجه ..

وقد عرفت عبد الله فى القاهرة .. عرفته من بعيد .. شاب طويل أسمر ، شعره أكرت قصير .. وربما لم يكن جميلاً ، ولا وسيماً ، ولكن ملامحه جذابة ، تشدك إليه .. عيناه فرعونيتان قلقتان فى قلقهما جراءة واندفاع .. وأنفه فخم يتربع على وجهه كأنه عرش سليمان .. وشفتاه مكنترتان غامقتان تشعان بالحيوية والنهم .. ويعتنى اعتناء خاصاً بثيابه ، وينتقى منها هذا الطراز الذى يبرز قوامه المشوق الطويل .. البنطلون الضيق الساقين ، والسترة المشقوقة الجانبيين التى تلف خصره لفاً محكماً ..

ورغم أن ملامحه تجذبك إليه ، إلا أن الذى يراه من بعيد قد يحكم عليه لفرط أناقته ، ولمشيته المرسومة الخطوات ، وحركاته المهذبة المبالغ فيها .. قد يحكم عليه بأنه من هذا الصنف من الشبان الفارغين الذين يسفحون كل ذكائهم تحت أقدام البنات .. وكان هذا هو حكمى عليه وأنا أراه من بعيد .. فى نادى الجزيرة ،

ولمى الملاهى الليلية .. وفى الفنادق الكبرى .. وأصبحنا من كثرة ما التقت نظراتنا ، يحيى أحدهنا الآخر بلا ترحيب ، كان كلاً منا يتلقى شر الآخر ..
إلى أن عرفته عن قرب ..



كنت فى مطار روما أستقل الطائرة إلى استكهولم .. وما كدت أدخل الطائرة حتى لمحته .. عبد الله رفعت .. جالساً وبجواره مقعد خال ، جلست فيه وأنا أحييه بتحفظ ولكنه رد لىحتى بفرحة وترحاب كبير ، كانى أنقذته من وحدته وزفقه .. وأهل البلد الواحد عندما يلتقون فى الخارج ، تتوسط بينهم الصداقة ويتصل بينهم الحب بسرعة .. فى لحظة .. كأنهم ولدوا من أم واحدة ..

وعرفت منه أنه قادم من القاهرة فى طريقه إلى استكهولم أيضاً ، مندوباً عن إحدى المؤسسات التجارية لفتح أسواق للفاكهة والخضر المصرية .. وتحدثنا قليلاً عن مصاعب تسويق الخضر والفاكهة .. مناقسة إسرائيل .. سوء التغليف .. الروتين الحكومى .. « الحداقة » المصرية التى تتصور أنها تستطيع أن تخدع أى زبون .. و .. ولكن هذا الحديث لم يستغرق منا سوى دقائق .. ثم أدار عبد الله الحديث بلباقة إلى موضوع البنات .. بنات السويد ..

والتمعت عينا عبد الله وهو يسألنى فى لهفة عن بنات السويد .. لقد رسم صورة لهن فى خياله ، ورسم صورة لنفسه بينهن ، وكان من المستحيل - وهو يزور استكهولم لأول مرة - أن يتنازل عن هذه الصور .. خيل إلى أنه عاش عمره كله يحلم ببنات السويد .. كلهن جميلات .. وكلهن شقراوات .. وكلهن منحللات ..

لا مبادئ ولا حدود للعلاقات الجنسية .. وكلهن يعشقن الشاب
الطويل الأسمر .. يكفي أن يكون الشاب أسمر أكثر الشعر
لنتهافت عليه كل البنات .. وعبد الله يعرف في نفسه أنه أسمر
وطويل ، وشعره أكثر .. فلا بد أن بنات السويد سيتهافتن عليه ..
سيتخاطفنه .. ربما قامت معارك نسائية من أجله .. ربما انتحرت
البنات لهفة عليه .. و .. و .. وقد تمكنت هذه الصورة من خياله ،
إلى حد أنه كان يتوقع بمجرد أن يهبط من الطائرة في مطار
استكهولم أن تترقى بين أحضانه عشرات النساء ، وكانت المشكلة
التي ستواجهه - كما يتصورها - هي كيف يستطيع أن يرضى كل
هذا العدد من النساء ، وكيف يرضى نفسه بهن ..

واستطعت أن أستشف هذا الخيال الساذج الذى يطوى
عبد الله ، من لهفته ونهمه فى استزادة معلوماته عن بنات
السويد .. ومن تعليقاته العابرة .. ومن لمعة عينيه .. ومن حركاته
التي تفضح إعجابيه بنفسه ، وبسمرته ، وطول قامته ..
وقلت له كائى أصدمه فى خياله :

- ليس كل بنات السويد شقراوات ، كثيرات منهن ذوات شعر
أسود ..

ونظر إلى كائنه لا يصدقنى ، ثم قال فى لهجة يحاول أن تكون
وقورة :

- على كل حال ، إن ما يسمونه حرية الحب فى السويد ، ليس
فى نظرى سوى الانحلال الخلقى ..
قلت :

- لا .. إن معنى الانحلال ليس له وجود فى السويد ..
الانحلال هو أن تتحلل من تقاليد المجتمع الذى تعيش فيه ..

« حرية الحب » هي تقاليد المجتمع السويدى ، وليست تحدياً له
أو انحلالاً منه ..

وحرية الحب ليس معناها الفوضى الجنسية ، ولكنها تعنى
حرية الإرادة .. فكل بنت حرة فى إرادتها وكل ولد حر فى
إرادته ، فإذا اجتمعت إرادتهما على أن تقوم علاقة بينهما .. فلا
أحد يعترض .. ولا يعتبر اجتماع إرادتهما انحلالاً ..
قال وهو ينظر إلى كائنه لا يفهمنى :

- على كل حال ، إذا كان لهذا المذهب فضيلة ، فهو أنا يريح
المجتمع من البغاء أو الدعارة ..
قلت كائى أعانده :

- لا .. الدعارة ليست مظهراً من مظاهر الكبت ، ولكنها مظهر
من مظاهر الفقر .. إن المرأة التي تحترف البغاء ليست امرأة
مكبوتة فى حاجة إلى رجل ، ولكنها امرأة فقيرة فى حاجة إلى
مال .. والبغاء لا تتوافر فيه الإرادة الحرة التي تقوم عليها حرية
الحب .. الرجل قد يذهب إلى المرأة البغى وهو حر الإرادة ، ولكن
المرأة تذهب إليه وهى مسلوبة الإرادة ، تذهب إليه مسوقة
بضربات سياط الفقر .. وليس فى السويد بغاء ، لا علنى
ولا سرى . لا لأن السويد تؤمن بحرية الحب ، ولكن لأن السويد
من أغنى بلاد العالم بالنسبة لعدد سكانها .. ليس فيها فقراء ..
ليس فيها امرأة فقيرة حتى تحترف البغاء ..

قال وهو لا يزال ينظر فى وجهى بعينيه الواسعتين الجريئتين
كائنه يحاول أن يفهمنى :

- كأنك تدافع عن « حرية الحب »؟

قلت :

- أنا لا أومن بحرية الحب ، ولا أومن أيضاً بالبغاء ..

و « حرية الحب » إذا كانت قد أصبحت جزءاً من تقاليد السويد ، فلأن السويد كدولة وكمجتمع قادرة على أن تتحمل نتائج هذه التقاليد .. الأولاد مثلاً .. خصوصاً الأولاد غير الشرعيين .. أولاد الحب الحر .. إن حكومة السويد تتكفل بهم منذ أن يولدوا إلى أن يكبروا وتوفر لهم عملاً .. لأن السويد كما قلت لك دولة غنية .. مجتمع غنى .. ورغم هذا .. هل تعلم أن نسبة الانتحار فى السويد هى أعلى نسبة فى العالم .. معنى هذا أن شعب السويد هو أتعس شعب فى العالم ..

قال فى دهشة :

- مستحيل .. لماذا ؟!

قلت :

- فى رأى أن سبب تعاسة السويد أن تقدمها قام على تفكير علمى محض ، لا يسانده إيمان روحى .. والتفكير العلمى وحده لا يكفى لإسعاد البشرية ، كما أن الإيمان الروحى وحده لا يكفى لتقدمها .. السويد كالرجل الغنى الفاحش الغنى .. الذى ينقصه الإيمان .. الإيمان بأى شىء .. ويستطيع بما له أن يرضى جميع حواسه ، ولكن تظل نفسه خاوية .. فارغة .. لا يستطيع أن يرضيها .. فينتحر .. أو يجن .. إن نسبة الانتحار والجنون بين الأغنياء أكثر منها بين الفقراء ..

قال فى سذاجة :

- لا أفهمك ..

قلت :

- إن الفرد فى السويد هو أكثر أفراد العالم كله ضماناً لحياته .. إن دولته تتحمل مسئوليته منذ يولد إلى أن يموت .. وأصبح اعتماده على دولته أكثر من اعتماده على عائلته ، بل أكثر

من اعتماده على نفسه .. ورغم ذلك فلا يربطه بدولته إيمان ما .. ليس له مذهب اجتماعى يدين به ويدافع عنه ويتحمس له .. كل ما حدث أن الدولة غنية ، فوزعت الثروة القومية بتفكير حسابى ، لا بناء على مذهب محدد .. إنها ليست دولة اشتراكية مثلاً ، حتى نقول إن الشعب يؤمن بالاشتراكية ، ولكنها دولة خدمات عامة وتأمينات اجتماعية .. رغم أن الخدمات والتأمينات التى تقدمها تفوق كل الخدمات التى تقدمها أى دولة اشتراكية .. النتيجة .. والنتيجة أن الروابط العائلية ضعفت .. أصبح الولد والبنت ينفصل كل منهما عن العائلة بمجرد بلوغه الثامنة عشرة . وتقيم البنت وحدها أو مع صديقة لها ، وكذلك الولد .. والدولة تتكفل بهم .. والإيمان بالله أيضاً ضعف ، لأن لا أحد فى حاجة إلى الله ، فالدولة تغنيه عن الحاجة إليه .. والروابط الفردية بين الناس بعضهم وبعض ضعفت أيضاً .. لأنه ليس هناك إيمان ولا احتياج يربط الأفراد بعضهم وبيعض .. فانعزل الناس .. كل فى حجرته يقرأ أو يسمع الموسيقى .. والفراغ الروحى يعذبه .. والوحدة .. وهكذا ارتفعت نسبة الانتحار ..

و

واستمرت مناقشاتنا طويلاً .. قلت له كل ما عرفته عن السويد خلال زيارتى السابقة لها .. ولكن كل ما قلته لم يستطع أن يغير شيئاً من الصورة المرترسة فى خيال عبد الله .. صورة نفسه وهو مقبل على جنة الشقراوات .. والصورة تملأ خياله إلى حد أنه لم يحاول أن يلتفت إلى المضيئة الهولندية الحسناء ويسلط عليها سحره الشرقى .. ما حاجته إلى الهولنديات وبنات السويد فى انتظاره ..

وكلما اقتربنا ، ازداد نشاط عينيه ولعت فيهما اللهفة ..

وتلمظت شفتاه وهو يبللها بلسانه .. ومط عنقه من خلال ياقة قميصه وهو يساوى الكرافطة كأن عينيه تحاولان القفز من نافذة الطائرة لتسبغاه إلى بنات السويد ..



ووصلنا ..

وكنا فى شهر يونيو .. والجو منعش تسرى فيه موجة ضعيفة من البرد الخفيف كأنها أنامل امرأة رقيقة تدغدغ أعصابك وتنشطها .. ورذاذ المطر يغسل الأرض .. ومطر السويد فى الصيف له رائحة حلوة ، كأن السماء ترش الناس بماء الورد .. ولكن عبد الله لم يفتح صدره لكل هذا الجمال الذى يحيط به .. وقف بجانب الطائرة وقد شد قامته ، ورفع رأسه ، وعلى شفتيه ابتسامة مغرورة ، ومعطفه ملقى على ذراعه ، وعيناه الفرعونيّتان منطلقتان كأنهما تبحثان عن شىء كان يجب أن يكون فى انتظاره ..

وتقدمت نحونا مضيئة المطار .. شقراء ، تضج وجنتاها بدماء شبابها .. واتسعت ابتسامة عبد الله ، وشد قامته أكثر ، كأنه رأى فى المضيئة مندوبة اتحاد الشقراوات جاءت لترحب به وتقوده إلى باب الجنة .. ولكن المضيئة لم تلمح عبد الله .. ولا أحست بأهميته بينما .. وأسرعت إلى سيدة عجوز وحملت عنها حقيبتها ، وسندتها بذراعيها ، ثم قادت جميع الركاب بما فيهم عبد الله إلى جمرک المطار ..

وهز عبد الله كتفيه بلا مبالاة .. وظل محتفظاً بقامته المشدودة وابتسامته الكبيرة .. وبدأت عيناه تطوفان بموظفات الجمرک كأنه يقول لكل منهن .. انظرى إلى .. إنى طويل أسمر .. وقد جئت من الشرق .. من أفريقيا ..

ولم يتلق أية إجابة على ندائه .. واقتنع عبد الله بأن يقيم معى فى فندق قريب من المطار ، لأنه أرخص .. على أن نذهب إلى المدينة كل صباح فى المترو .. وما كاد يدخل غرفته ، حتى اتصل بى فى غرفتى بالتليفون ،

وقال :

— أريد أن أذهب إلى المدينة ..

قلت :

— ألا نستريح قليلا ..

قال :

— يجب أن أمر على السفارة حالا ..

ورضى أن يتركنى إلى أن أستحم وأبدل ثيابى .. ثم لقيتة فى بهو الفندق وركبنا المترو إلى المدينة .. وكل شىء حولنا يبهر العين .. خصوصاً عين الغريب .. الأنهار الصغيرة الرقراقة ، وذوب الثلج يرقص على صفحاتها .. وقمم الجبال المغطاة بالثلوج .. والبحيرات الزرقاء .. وقطع السحاب كالقطن المنفوش .. والأشجار الضخمة وهى تعرض نفسها لشمس الصيف بعد أن خلعت معاطف الشتاء .. كل شىء يبهر .. متعة تسرى حتى أخمص قدميك .. ولكن عبد الله لم يحاول أن ينظر حوله .. وقف داخل المترو مشدود القامة ، وسلط عينيه الفرعونيّتين على شقراء شابة جالسة تقرأ فى كتاب ، كأنه كان ينتظر بين كل لحظة وأخرى أن ترفع وجهها إليه .. إلى قامته الديدة ولونه الأسمر .. وتشهق .. ثم ترتى فى أحضانه ..

ولم ترفع الشقراء وجهها إليه .. قامت فى هدوء ونزلت فى إحدى المحطات ..

وأدار عيـنـه ، وسلطهما على شقراء أخرى ..

ولم يحدث شيء ..
 ووصلنا إلى دار السفارة في شارع « ستراند فييدان » ..
 ورحب بنا موظفوها ورأيت عبد الله ينقلب إلى شخصية أخرى ..
 شاب جاد مهتم بموضوعه ، يوجه أسئلة دقيقة ، ويسجل عناوين
 شركات الاستيراد ، وأرقام الإحصاءات .. وعيناه جادتان ، اختفت
 منهما هذه النظرة الفرعونية المغرورة .. وشفتاه مزومتان انطفا
 فيهما النهم الغريب ، وهذا الخيال المراهق .
 ثم ..

ما كدنا نخرج من السفارة ، ونسير على كورنيش خليج
 الأجورز ، حتى عاد عبد الله إلى شخصيته الأولى .. حاولت أن
 ألفت نظره إلى جمال الخليج الهادئ ، الرائد على حافة المحيط
 كأنه يختبئ خوقاً منه .. ولكن عبثاً .. أدار عبد الله عينيه عن
 الخليج ، وراح يجرى بهما وراء الشقراوات اللاتي يملأن الطريق ،
 وقد عادت إليه نظراته الفرعونية الجريئة ، وانفرجت شفتاه من
 النهم وبينهما هذا النداء .. إنى طويل .. أسمر .. وقد جئت إليكم
 من أفريقيا .. من الشرق !!

وأخذته إلى مطعم في شارع « كونجز جاتا » .. وعرضت عليه
 أن نتناول الـ « سمورجس بورد » وهو أشهى وأفخم
 « أورديفر » في العالم .. مائدة طويلة عريضة عليها أكثر من مائة
 صنف من المشهيات تختار منها ما تشاء .. أكثر من خمسين صنفاً
 من السمك وحده .. وعشرات من أصناف اللحوم .. والسلطة ..
 والبطاطس .. و .. و .. وتآكل كما تشاء حتى لو أكلت المائدة
 كلها ..

واكتشاف أصناف الطعام يعتبر متعة كبيرة عندما تسافر إلى
 الخارج .. إنى أحس كأني أكتشف الشعب نفسه ..

وعليبعته .. وفسيولوجيته .. ودرجة مدنيته .. إنك تستطيع أن
 تعرف الناس مما يأكلون .. وقد أخذت أحدث عبد الله عن أطعمة
 السويد .. الـ « بلو بودنج » وهو نوع من اللحم المفروم .. وسمك
 السالون المدخن ، الذي يعتبر من أرقى الأطعمة في العالم كله ،
 الكالفيار الروسي و « الكراي فيش » وهو نوع من الجمبري ..
 و .. و .. ولكن عبد الله لم يهتم بالـ « سمورجس بورد » ..
 ولا استمع إلى شيء مما أقول .. ولا تذوق شيئاً مما أكله .. إن كل
 حواسه كانت مركزة في عينيه .. يطوف بهما على الشقراوات ..
 وفي كل عين سنارة تحاول أن تصطاد واحدة منهن .
 ولم يصطد شيئاً ..

وخرجنا عائدين إلى الفندق .. وهو صامت متبرم .. لا يريد أن
 يفصح لي عن سبب تبرمه .. ولم أكن في حاجة إلى أن يفصح
 لي .. كنت أعرف سبب تبرمه ..
 وفي الصباح التالي لبس عبد الله شخصيته الأخرى ..
 الشخصية الجادة النشطة العاملة .. وتركتني ليطوف ببعض مكاتب
 شركات استيراد الخضر والفاكهة ، بعد أن تواعدنا على اللقاء
 لتناول الغداء معاً ..

وعندما التقينا أخذته على ظهر باخرة تطوف بنا مجموعة
 البحيرات والجزر التي تحيط باستكهولم .. ولكن ، لا البحيرات
 ولا الجزر أثارت اهتمام عبد الله .. عادت إليه عيناه المجنونتان
 يلاحق بهما الشقراوات ..
 وعندما نزلنا من الباخرة قال في حدة وهو يضرب أسفلت
 الشارع بقدميه في عصبية :

— هذا غير معقول .. يومين في أستكهولم .. ولا شقراء
 واحدة ..

قلت كائى أطيّب خاطره :
 - صبرك .. غداً عيد كبير .. وستخرج إليك كل شقراوات
 البلد ..
 ولوى عبد الله شفتيه ، وهز كتفيه كأنه لا يبالي ..
 وكان الغد هو يوم ٢٤ يوليو .. وهو أطول يوم فى السنة .. أو
 أطول نهار .. والسويد تحتفل بأطول نهار وتسميه « عيد منتصف
 الصيف » .. وتحتفل فى الشتاء بأطول ليل .. وتسميه عيد سانتا
 لوتشيا .. أو عيد النور .. وتتنخب فيه ملكة النور ، وتتوج بتاج
 من الشموع الموقدة ..
 وخرجت المدينة كلها فى صبيحة يوم ٢٤ يوليو ، إلى الحدائق
 والشوارع .. وأوقدت النيران .. فى كل خطوط تجد كومة كبيرة
 من الحطب المشتعل ، يرقص حولها الرجال والنساء .. وموسيقى
 وطنية صاخبة .. وأغانى .. وضحكات .. كل شىء يضحك ..
 الأشجار تضحك .. والجبال تضحك .. والبحيرات تضحك .. وباعة
 السنديوتش والكراى فيش ، يضحكون .. وكل الناس تضحك ..
 ولكن عبد الله لا يضحك ..
 إنه واقف على طريقة رودولف فالنتينو فى رواية ابن الشيخ ..
 مشدود القامة ، مرفوع الرأس . يده فى جيب بنطلونه ، وعيانه
 الفرعونيتان الساخنتان مسلطان على الناس ، كأنه إله فى انتظار
 أن تقدم إليه القربان .. وابتسامته المرسومة المتعالية تطل من بين
 شفتيه المكتنزتين الغامقتين كأنه يمسح بها ذنوب البشر .
 ومضت فترة طويلة وعبد الله واقف فى مكانه كتمثال رائع ،
 ويرفض أن يتحرك كأنه كان واثقاً أن هذه المرة لن تخيب ..
 ومر من أمامنا طابور من الشبان والشابات .. كل شاب ممسك
 بيد شابة . ويجرون فى خطوات راقصة على نغمات أنشودة

وطنية .. وفى آخر الطابور فتاة شقراء ، ما كادت تمر من أمام
 عبد الله حتى جذبته من يده ، وخطفته ليجرى وراءها راقصاً
 منضماً إلى الطابور ..
 ورأيت عبد الله يرتبك .. ولعله أحس بأن وجهته قد اهتزت ،
 و « البوز » الذى كان يتخذه قد اختل .. ورغم ذلك فقد كان يكفى
 أن يشعر بيده فى يد فتاة شقراء حتى يجرى خلفها إلى آخر
 الدنيا ..
 ثم يحاول أن يرقص كما يرقصون .. وكانت محاولاته
 مضحكة .. كان أشبه بالحصان الوحشى يرفس قدميه ، وعلى
 شفتيه ابتسامة بلهاء ..
 وتنبهت إلى أن طابور الراقصين ، بما فيه عبد الله ، قد ابتعد
 عنى .. فدرت أبحث عنه ..
 ووجدته ..
 واقفاً وحيداً فى وسط الحديقة ، بعد أن تركت الفتاة يده ،
 عندما أحست بلخمته ، وابتعدت عنه مع الطابور ..
 وضحكت ضحكة كبيرة ..
 ولم يرحب عبد الله بضحكتى .. نظر إلى فى غيظ ، وعلى
 شفتيه ابتسامة مرة .. ثم عاد إلى حالة رودولف فالنتينو ..
 صامتاً .. القوام المشدود ، والرأس المرفوع ، والعينان المسلطان ،
 والابتسامة المتعالية ..
 ولم يخرج فالنتينو بشىء ..
 وبدأ غيظه ينقلب إلى ثورة ..
 لا يمكن أن يكون فى البلد كل هؤلاء الشقراوات .. وكلهن يؤمن
 بحرية الحب .. ثم لا يخرج بشىء ..
 إنه لا يستطيع أن يتخلى عن أحلامه بهذه السهولة ..
 لا يستطيع أن يعود إلى القاهرة من السويد ، ثم لا يجد

مغامرة واحدة يرويها لأصدقائه ، ويرضى بها غروره .
وظل ناثراً إلى أن دخلنا أحد المطاعم لتتناول طعام الغداء ..
وعندما تقدم منا الجرسون كان في أشد ثورته إلى حد أن التفت
إليه - إلى الجرسون - قائلاً :
- كيف أستطيع في هذا البلد أن أتعرف إلى فتاة ؟ ..
وابتسم الجرسون في أدب ، وقال كأنه يرفع الغطاء عن أسرار
الكون :

- تستطيع أن تذهب إلى التوريسست جاردن ..
« والتوريسست جاردن » أى حديقة السياح مقهى فى أحد
الحدائق ، يتردد عليه السياح الأجانب ، وتتردد عليه النساء اللاتى
يغرمن بصحبة الأجانب .. إنهن لسن محترفات ، ولكنهن فقط من
هواة جمع التذكارات من الأجانب ..
وأصر عبد الله أن يذهب إلى التوريسست جاردن ..
ونذهبت معه ..

وتقدمنى بعد أن نزلنا من التاكسى ، وهو يسير فى خطوات
عنيقة مصرة ، كأنه مندفع إلى معركة ..
ثم وقف أمام المقهى مبهوتاً .

إن المقهى مزدحم بالملونين .. السمير .. والسود .. من أسبانيا ..
ومن بلاد العرب .. ومن بلاد أواسط أفريقيا .. وكل منهم معه
فتاة شقراء ..

وسقط رأس عبد الله على صدره ، كأنه قطع عن عنقه .. قطعته
خبيبة الأمل .. إنه لن يكون هنا شيئاً مميزاً .. إنه واحد من كل
هؤلاء الملونين .. إن الفتاة التى سيلتقطها من هنا ، لن تستجيب له
لشخصيته ، ولا لعبقريته ، ولا لجماله .. ولكن مجرد أنه ملون ،
وأجنبى .. ومن يدرى ، ربما خصصت الحكومة هذا المقهى
لتشجيع السياحة .

وهمس عبد الله من تحت أسنانه :

- دعنا نبتعد من هنا ..

وعدنا إلى شارع فالهالا فيتجن .. بعيداً عن التوريسست
جاردن .. بعيداً جداً .. وسرت أنطلع إلى نوافذ الحوانيت وعبد الله
يسير بجانبى ساهماً .. ثم فجأة .. بلا مقدمات .. رفع رأسه إلى
شقراء مرت به ، وأمسكها من ذراعها برفق ، وقال كأنه يتوسل :

- عن إندك .. هل أستطيع أن أدعوك الليلة إلى العشاء ..

ونظرت إليه الفتاة فى دهشة ، ثم قالت ببساطة :

- آسفة .. إنى على موعد للعشاء ..

وترك عبد الله ذراعها ، وسار فى طريقه .. ثم ما لبث أن أمسك
بشقراء أخرى ، وقال وصوته أكثر حدة :

- هل أستطيع أن أدعوك للعشاء ..

وضحكت الفتاة ضحكة كبيرة .. وقالت :

- آسفة .. ربما فى يوم آخر ..

وقال عبد الله فى لهفة :

- هل أستطيع أن أعرف عنوانك .. نمرة تليفونك .. لاتصل
بك ..

قالت وهى لا تزال تضحك :

- دعها للصدفة .. كما التقينا اليوم ..

وجذبت ذراعها من يده برفق وابتعدت وهى لا تزال تضحك ..

وفتاة ثالثة ..

ورابعة ..

وخيل إلى أن الشارع كله قد امتلأ بالضحكات الساخرة ..

والعيون التفت حولنا .. عيون ليست غاضبة .. ولكنها ضاحكة ..

فى ضحكاتهما دهشة .. كأنها عيون تتفرج على أراجوز ..

ولكزت عبد الله في جنبه ، وقلت :
 - اعقل .. إن الناس تضحك علينا ..
 قال وهو يتطلع إلى شقراء جديدة :
 - دعهم يضحكون ..
 قلت :

- إنك بذلك تعتدى على حرية الفتيات الشخصية ، والحرية هنا مقدسة ..

قال صارخاً :

- وحررتي .. إني سأجن .. سأجن ..
 وخفت صوته وعاد يردد :
 - سأجن .. سأجن ..



كل هذا كان يحدث ، وعبد الله يقوم في الصباح وهو في شخصيته الأخرى .. شخصية الشاب العامل الواعي الشاطر .. واستطاع في أيام قليلة أن يحصل على عقد من إحدى شركات الاستيراد السويدية ، لتوريد كميات من الخضر والفاكهة والزهور المصرية .. ودعته الشركة إلى حفل عشاء في أحد المطاعم الكبيرة بمناسبة توقيع العقد ، ودعوا معه بعض رجال السفارة ، ودعوني بعد أن طلب منهم عبد الله دعوتي ..

وجلس عبد الله في صدر المائدة ، وعلى يساره مدير الشركة السويدية ، وعلى يمينه « ليانا » ، إحدى موظفات الشركة ..

وليانا شقراء رائعة الجمال .. وكنت دائماً أكره في الشقراوات لون رموش عيونهن الباهت الذي يضيع في لون الوجه فيضيع معه جمال العين ، وتضطر كل منهن أن تلون جفنها باللون الأخضر أو الأزرق حتى تنعكس ظلاله على رموش العين

فقد رها .. وكنت أكره أيضاً هذا اللون الأخضر أو الأزرق .. ولكن ليانا لم تكن تصبغ جفنيها لا بالأخضر ولا بالأزرق .. ورموش عينيها كانت داكنة بحيث تبرز جمال العين .. وكنت أكره في الشقراوات أيضاً أنهن يوحين بالأنوثة الخليعة .. ولكن ليانا لم تكن خليعة .. كانت أنوثتها هادئة .. كبرودة استكهولم في الصيف .. محترمة .. ممشوقة القد ، طويلة ، كطول عبد الله ، حتى دليل إلى أنها خلقت على مفاصه ..

واستدار عبد الله بكل جسمه إلى ليانا .. ورأيت في أحسن حالاته .. عيناها الفرعونيتان هادئتان كأنهما واثقتان من النصر .. وابتسامته المتعالية أكثر تعالياً .. ورودلف فالنتينو مكتمل شخصية ابن الشيخ ..

ولم يكف عن التحدث إليها .. ربما قال لها كل الكلام الذي اشتدته في صدره من قبل أن يصل إلى استكهولم ليقوله لكل ومات السويد .. ولم يحاول مرة أن يستدير إلى مدير الشركة ليقول له كلمتين ، حتى كانت ليانا تضطر بين الحين والحين أن تمد عنقها إلى المدير لتحادثه لعل عبد الله يشترك معها في الحديث إليه .. ولكن عبد الله كان يقول كلمة واحدة للمدير ثم يستدير إليها ، ويتفرغ لها .. ناسياً المدير .. ورجال السفارة .. والمدعويين .. لا شيء أصبح يهمه إلا هذا الأمل الكبير الذي وصل إليه ..

وقام مدير الشركة وألقى خطاباً طويلاً استغرق أكثر من ثلث ساعة ..

ولم يكن عبد الله يستمع إليه .. ورغم المحاولات الكثيرة التي بذلتها ليانا . ظل مستديراً لها بكل جسمه يحدثها .. كل ما فعله أن خفض صوته قليلاً حتى لا يغطي على صوت المدير ..

وانتهى المدير من خطابه ..
ورفعنا الكئوس فى صحة العلاقات الطيبة بين السويد
والجمهورية العربية .. سكول .. وسكول كلمة تستعمل عند تبادل
الانخاب ، ومعناها الحرفى « جمجمة » .. فقد كان أهل السويد
القدماء يشربون الانخاب بعد انتصاراتهم الحربية فى جماجم
الأعداء .. وظلت كلمة « جمجمة » تستعمل حتى اليوم عند تبادل
أى نخب ..

واتجهت الأنظار بعد ذلك إلى عبد الله .. فقد كان عليه أن يقف
ويلقى كلمة رداً على كلمة المدير ..
ولكن عبد الله كان مختلياً بليانا ، حتى اضطرت أن تنبئه برفق
إلى واجبه .

واهتزت رموش عبد الله فوق عينيه كأنه أفاق من حلم ، وقام
واقفاً وواجه المدعويين كلهم بعينيه لأول مرة منذ بدىء الحفل ،
وقال بلا تلعثم :

- شكراً .. وأرجو لكم التوفيق ..

ثم رفع كأسه بسرعة ، وقال :

- سكول ..

ثم جلس بسرعة مستديراً بكل جسمه إلى ليانا ..

وضحك كل المدعويين .. ضحكوا بلا سخرية .. فقد كان عبد الله
فى تصرفه خفيف الدم ..

واحمر وجه ليانا ، فقد فضح عبد الله إعجابه بها أمام كل
المدعويين .. ولكنى أحسست أن عبد الله أرضى غرورها إلى حد
كبير ..

وظل عبد الله بجانب ليانا بعد انتهاء الحفل ..

وعند الباب الخارجى للمطعم ، صافحتنى قائلاً :

- عن إنذك .. سأذهب مع ليانا .
وانطلقت ابتسامته حتى آخرها .
وابتسمت له كأنى أهنته .. لقد حقق أخيراً حلمه الذى جاء به
من القاهرة ..



فى الساعة الخامسة صباحاً ، دق جرس التليفون فى غرفتى
بالفندق .. واستيقظت مفزوعاً لاسمع صوت عبد الله :

- آسف لإزعاجك .. ولكنى أريد أن أراك حالاً ..

قلت وأنا أعتدل فى فراشى :

- أين أنت ؟ ..

قال :

- ما زلت فى المدينة .. شارع دروتنج جاتن .. رقم ٤٥ ..

الدور الخامس ..

قلت وأنا أشد دهشة :

- ماذا تفعل ..

قال :

- إبنى عند ليانا ..

قلت فى حدة كأنى أنهره على عيئه :

- ولماذا تريدنى ؟ ..

قال فى توسل :

- أرجوك .. لا تسألنى .. احضر حالاً ..

قلت :

- الآن ؟ ..

قال :

- الآن ..

قلت :

- أنت مجنون .. إنها الخامسة صباحاً ..

قال كأنه يهم بالبكاء :

- أرجوك ..

وقلا على العنوان مرة ثانية لاكتبه .. ولم أستطع أن أجد سيارة أجرة . قبل الساعة السابعة ، وكنت أدق جرس شقة ليانا فى الثامنة ..

وفتحت لى ليانا الباب ..

إنها لا تزال فى ثوب السهرة الذى بدت به فى حفلة العشاء .. وشعرها الأصفر لا يزال فوق رأسها لم تتحرك منه شعرة .. لم يمسه بشر ..

وانطلقت عيني إلى داخل الشقة لأرى عبد الله جالساً على أريكة عريضة .. لا يزال ببذلته .. وآثار السهر الطويل تطل من تحت عينيه ..

وقلت له فى لهفة :

- ماذا حدث ؟؟

قال فى هدوء :

- اجلس ..

ونظرت إليه طويلاً ثم جلست على مقعد عريض ، وجلست ليانا على مقعد آخر .. ومنفضة السجائر أمام عبد الله ممثلة حتى آخرها ..

وركز عينيه فى عيني ، ثم قال وهو أكثر هدوءاً :

- سأتزوج ..

قلت وأنا أكذب أذننى :

- ماذا تقول ؟؟

قال :

- سأتزوج ..

قلت :

- من ؟

قال وهو ينظر إلى فى امتعاض كأنه يتهمنى بالغباء :

- ليانا طبعاً ..

وسكت برهة وأنا أنقل عيني بينه وبين ليانا ، ثم قلت له :

- ألا تعتقد أن الموضوع يحتاج منك إلى تفكير أكثر !؟

قال :

- لا .. فكرت .. وقررت ..

قلت :

- لنذهب إلى الفندق ونستريح قليلاً ونناقش قرارك .. لا بد

أنك متعب إثر السهر الطويل ..

قال فى حدة :

- لن أذهب إلى الفندق .. لن أفترق عن ليانا لحظة واحدة ..

والتفت إلى ليانا وقلت وأنا أدعى الهدوء وأحاول أن أناقش

الموضوع مناقشة علمية حتى أقترب من عقلية بنات السويد :

- أظن أن هذا القرار يستحق التفكير ..

قالت فى هدوء ووجهها صاف لا يبدو عليه أثر التعب :

- لقد فكرنا طويلاً .. الليل كله قضيناه نفكر .. ولم تكن فى

حاجة إلى كل هذا التفكير لو أن « أبدولا » (تقصد عبد الله) كان

مقيماً هنا .. فى السويد .. فالزواج فى نظرى إجراء سخي ،

ولكنه ضرورى فى حالتنا هذه .. فأنا معجبة بأبدولا .. أعتقد أنى

معجبة به جداً ، لعلى أحببته فى ليلة واحدة .. ولكنه مسافر

بعد غد .. ولو اقتربت منه خطوة واحدة أكثر من ذلك فسأتعذب

بفراقه .. وأنا لا أريد أن أتعذب .. وكان أماننا أحد حلين .. إما أن نفترق دون أن نقترب أكثر .. وإما أن نتزوج وأسافر معه .. ورفض أبدياً أن نقف حيث نحن .. إنه يقول إنه يحبني .. ويريدني .. إذن لم يبق أماناً إلا الحل الآخر .. أن نتزوج وأسافر معه إلى مصر .. هذا هو كل شيء ..

ولم أتكلم .. بقيت أفكر .. وسمعت ليانا تقول لي :

- هل الجو في مصر حار جداً ..

وأجبت في عجلة :

- لا .. ليس جداً ..

ثم التفت إلى عبد الله قائلاً بالعربية :

- عبد الله .. أعتقد ..

وصرخ في عبد الله باللغة الانجليزية :

- أرجوك .. لقد ناقشنا الموضوع بما فيه الكفاية .. ثم لماذا

لا أتزوجها .. هل تعلم أنها دكتورة في الاقتصاد .. هل تعلم أن

أباها أحد أصحاب أكبر مصنع خشب في السويد .. ثم انظر إلى

مكتبتها .. وإلى مكتبة الأسطوانات .. إنها لقطعة .. إنها فرصة .. لن

أجد بنتاً في مثل ثقافتها ولا في مثل جمالها ، ولا في مثل

أخلاقتها .. في أي بلد من بلاد العالم ..

وقلت في تهكم :

- لقد كنت تبحث عن حرية الحب في السويد .. و ..

وقال صارخاً :

- أنت بنفسك قلت إن حرية الحب هي حرية الإرادة .. وقد

اجتمعت إرادتنا الحرة على الزواج ..

ثم تتم في صوت خفيض :

- من كان يدريني أنهم حتى في السويد يتزوجون ..

وقلت في هدوء :

وماذا تريدني أن أفعل ؟

قال :

إن تكون معي .. أنت الوحيد الذي أعرفه هنا من بلدي ..

سأكون شاهداً على زواجي ..

وأدرت رأسي إلى ليانا قائلاً :

ليانا .. أرجوك .. أقتعني بهذا الزواج ..

وقالت في هدوء وهي تبتسم ابتسامة رشيقة :

قلت لك إنني أنا شخصياً لا أومن بنظام الزواج .. ولو كان

أبدولاً مقيماً هنا لما فكرت فيه .. لأنني هنا في بلدي ، أستطيع أن

أعتمد على نفسي .. أن أشتغل .. وأضمن حياتي .. ولكنني قبل أن

أسافر إلى مصر يجب أن أحصل على بعض الضمانات لحياتي ..

أفلاها الزواج ..

ونظر إليها أبدولاً .. آسف عبد الله ، معجياً بشخصيتها ..

وهزرت رأسي مؤمناً على كلامها ..

وقال عبد الله :

اقتنعت ؟

قلت :

- يكفي أنك مقتنع ..

قال وهو يفرد نفسه على الأريكة العريضة :

- سأتنا ساعة ..

ونام ..

وقامت ليانا لتستحم وتبدل ثوبها ..

وجلست أدير النظر في بيت ليانا وفي جدرانها المغطاة بالخشب

المحروق ..

ألمانيا

حاريب بالون الأحمر..

إن كل بيوت استكهولم جدرانها مغطاة بالخشب ، ولكنى لم أر
فى استكهولم ولا فى أى مدينة فى العالم بيتاً أكثر أناقة ولا أكثر
هدوءاً وراحة من بيت ليانا ..

•••

وفى الساعة العاشرة صباحاً تم زواج ليانا وعبد الله ، ووقعت
على العقد بصفتى شاهداً ؛ ثم ذهبنا وسجلنا العقد فى سجلات
سفارتنا ..

وفى اليوم نفسه سافرت إلى همبورج فى ألمانيا ..
سافرت وأنا أنتظر بين يوم وآخر أن أسمع خبر طلاق عبد الله
وليانا .. لسبب واحد هو أن عبد الله كان يبحث فى السويد عن
مغامرة مع شقراء .. لا عن زوجة ..
والتقينا فى القاهرة ..

وكانت ليانا أجمل فى القاهرة منها فى السويد .. جمالها لوى
عنق القاهرة .. وجعل منها نجمة كل المجتمعات .. وكانت أنيقة ..
هادئة .. مخلصه .. وكان بيتها الذى استوردت كل أثاثه من
السويد ، رائعاً ..

لذلك ذهل الناس عندما تم الطلاق .

ما عدا أنا ..

كنت أعرف أن ليانا تثير فى نفس عبد الله إحساسه بالفشل ..
الفشل كمغامر فى جنة الشقراوات ..

وكان الإحساس بالفشل يتضخم يوماً بعد يوم .. ويعذب عبد
الله وعبد الله يعذب ليانا .. إلى أن انفجر الإحساس بالفشل ..

وتم الطلاق ..

مدير .. ولم يكن لى فى مدير سوي ليلة واحدة .. وألقيت حقائبي فى غرفتي ، ونزلت إلى بهو الفندق ، دون أن أحلق ذقنى أو أبذل ثيابي ، بعد الساعات الطويلة المتعبة التى قضيتها طائرا ، وكان ليلة واحدة فى مدير لا تستحق منى أن أحلق لها ذقنى وأبذل ثيابي ..

ولم أكن ليلتها أطمع فى شيء ، إلا أن أسير فى شوارع مدير ، أتطلع إلى وجوه الناس والمطر يتساقط عليها فتبدو كأنها وجوه من الشمع تذوب فى نار باردة . إلى أن أذوب أنا الآخر من التعب ، فأعود إلى غرفتي ، وأتناول طبقاً من اللبن الزبادى ، وأنام ..

كان هذا هو كل ما أريده ..

ولكنى لم أكد أتوسط بهو الفندق حتى امتلأت أذناى بصوت رفيع حاد شديد الانفعال تختلط فيه الكلمات الأسبانية بالكلمات الانجليزية ، بالفرنسية ، بالألمانية .. و .. وتوقفت ..

لابد أنه صديقى صلاح .. لا أحد فى الدنيا كلها يمكن أن يكون له هذا الصوت الرفيع الحاد سوي صلاح .. ولا أحد فى الدنيا

يستطيع أن ينطق بكل هذه اللغات فى وقت واحد وفى جملة واحدة ، سوى صلاح ..

أتلقت حولى إلى أن لمحتة .. صلاح .. واقفاً يتكلم بصوته العاد ، ويشوح بيديه ، وأمامه رجلان تبدو عليهما الحيرة والارتباك وهما يحاولان أن يجدا وقفة عابرة فى كلامه ينفذان معها ليبردا عليه ويقولوا رأيهما .. وهذه هى عادة صلاح دائماً .. عندما يتكلم لا ينتظر من أحد أن يرد عليه ، ولا يترك لأحد برهة يرد فيها عليه .. إنه يتنفس كلامه ، فإذا توقف عن الكلام ، احتسب ..

ووقفت أرقبه ، وابتسامة كبيرة تملأ قلبي .. إنى أحب صلاح رغم أنى لا أعرفه جيداً .. بل ربما أحبه لأنى لا أعرفه جيداً ، وقد هونتنى الحياة أنه لكى تحتفظ بحب رجل يجب ألا تعرفه جيداً ، الا تقترب منه إلى الحد الذى تفقد عنده حبه له .. وأنا لم أقترب من صلاح إلا فى لقاءات عابرة .. دائماً خارج مصر .. ودائماً بالصدفة .. قابلته مرة فى روما .. ومرة فى لندن .. ومرة فى نيويورك .. ومرة فى نيودلهي .. ولم أكن أعرف بالضبط ماذا يعمل .. مرة وجدته يعمل لحسابه فى التصدير والاستيراد .. ومرة وجدته مستشارا لإحدى الدول العربية .. ومرة وجدته مندوباً لإحدى الشركات الألمانية .. و .. والشئ الذى لم يتغير فيه هو صوته الحاد المنفعل ، المتدفق بالحياة .. وشبابه الذى لا يتعب أبداً .. إنى منذ قابلته لأول مرة - منذ أكثر من ثماني سنوات - وشكله لم يتغير أبداً .. قامته القصيرة .. ووجهه الوسيم المحتقن دائماً بانفعاله .. وعينه اللتان يبرق فيهما نكاء مشتعل بالنشاط .. وابتسامة كبيرة لا تغتر أبداً . وشعره الفاتح الذى

يرفض أن يستسلم للشيب .. إنه شباب دائم فى مظهره وفى
روحه .. أخضر دائماً كنبات الصبير ..

ولحنى صلاح ..

وانفتحت عيناه من الدهشة ، ثم صرخ صرخة حادة أزعجت
الفتدق كله . ولوت إلينا أعناق كل الناس .. وهجم على يحتضنى
ويقبلنى ، وهو يردد بصوته المنفعل :

- لا يمكن .. مستحيل .. أنت هنا .. منذ متى .. لا تقل أنك هنا
من أيام .. لا بد أنك وصلت منذ دقائق .. إنى أستطيع أن أشم
رائحتك بمجرد وصولك ..

واستسلمت له .. لم أحاول أن أردد معه كلمات الترحيب ..
وهو لا ينتظر منى أن أتكلم .. إنه يتكلم بما يكفيننا نحن الاثنين !!
وأطلقنى من بين ذراعيه ، وهو يقول :

- هل أنت مرتبط هذه الليلة ؟!

ولم ينتظر أن أجيبه .. أو ربما لمح الجواب فى عينى بذكائه ..
واستطرد قائلاً بصوته الضاح :

- انتظرنى هنا .. لا تتحرك .. سأعود إليك بعد دقيقتين ..

وانطلق إلى الرجلين اللذين كان يحدثهما ..

وألقيت نفسى على أحد مقاعد البهو ، وأنا أنظر خلفه فى
إعجاب . أكاد أكون مبهوراً به .. والواقع أنى أبهر بكل مصرى

يستطيع أن يعيش فى الخارج وأن يجد عملاً هناك يعينه على
الحياة .. أتصوره غازياً ، أو فاتحاً .. فتح لمصر مجالاً جديداً حتى

ولو كان مجالاً ضيقاً لا يكفى ليتحرك فيه إلا شخص واحد .. ربما
لأنى أنا نفسى كنت أحلم بأن أقضى حياتى متنقلاً بين بلاد

العالم .. لى فى كل بلد مائدة صغيرة أكتب عليها .. وقد فشلت
دائماً فى أن أحقق حلمى ، لأنى أتوه بين الناس الغرباء .. أفقد

شخصيتى .. أفقد إحساسى بنفسى .. إنى أستمد قدرتى على
الكتابة من إحساسى بشخصيتى ، وشخصيتى لا أجدها إلا هنا ..
فى مصر .. بلدى .. وكلما بعدت عن مصر شعرت بمائة حبل
عظيمة يشدنى من عنقى .. ومن قلبى .. ومن عقلى .. ومن قدمنى ..
إلى بلدى .. إلى شخصيتى ..

وعاد إلى صلاح بعد نصف ساعة ، يتقدمه صوته الرفيع
الهادئ :

- الليلة للصباح ..

قلت :

- إنى متعب و ...

ولكنه لم يسمعنى ، ولم يتركنى حتى أسمعه ما أريد قوله ،
واستطرد قائلاً وهو يجذبى من ذراعى :

- سأعرفك بأجمل بنات الأرض ..

وخيل إلى أنه على موعد مع فتاة ، وأنه سيصحبنى معه
ليقدمنى إليها .. وأنا لا أعرف شيئاً عن حياة صلاح الخاصة ..

ولكنى كنت سمعت وأنا فى القاهرة أنه أحب سيدة إيطالية ، وأثار
حول حبه نفس الضجة التى يثيرها فى كل مكان ، ثم تزوجها ..

وانتهزت برهة عابرة كف فيها عن الكلام وهو يلبس معطفه ،
وسالته :

- ألم تتزوج ؟

وتوقفت ذراعى التى كان يدسها فى كم المعطف ، ونظر إلى
كانه فوجئ بالسؤال ، وخيل إلى أن سحابة داكنة دأبت على

وجهه .. ولكنه أزاحها بسرعة وعادت إليه ضحكته الكبيرة
الصاخبة ، وقال وهو يتم لبس المعطف :

- يا أستاذ .. أتزوج .. هل أنا مجنون .. ولما أترك بنات الناس !!

ثم شدنى إلى سيارة أجرة ، ودفعنى داخلها .. وهو لا يكف عن الكلام ..

وحديث صلاح كما تختلط فيه كل اللغات العالمية ، تختلط فيه كل المواضيع .. إنه يتحدث عن التجارة ، وعن أسعار الصلب والقطن والفوسفات ، ثم ينتقل فجأة إلى حديث الحب ، ثم يقفز إلى المشاريع السينمائية ، ويتحدث عن الأفلام من ناحيتها التجارية بنفس الحماس الذى يتحدث به عن ناحيتها الفنية ، ثم تجده فجأة يتحدث فى السياسة الخارجية ، ثم ينتقل إلى الأدب .. وهو فى كل ذلك غزير المعلومات .. لا أدرى كيف يستطيع أن يلم بكل هذه المعلومات فى مواضيع متناقضة ، بل إنه قرأ آخر إنتاج لكل أدباء مصر رغم أنه يعيش بعيداً عن مصر منذ سنوات .. وكل المجالات .. وكل الصحف .. إن إقباله على الحياة يجعله يحرص على ألا يفوته شيء مهما كان بعيداً ، ومهما كان صغيراً .. إنه يريد أن يحس دائماً بأنه يعيش داخل بلده ، كما يعيش مع كل شعوب العالم .. إنها حيوية .. حيوية تسع الحياة كلها .. ورغم ذلك فعندما تسمع آراء صلاح ، تحس أنها كلها آراء عاطفية .. ليست قائمة على المعلومات الدقيقة التى جمعها ، بل قائمة على مجرد أحاسيسه .. وتحتار فى اكتشاف هذه الأحاسيس التى تملئ عليه آراءه .. إنها أحياناً تبدو أحاسيس قاسية جامدة ، وأحياناً تبدو أحاسيسه رقيقة إنسانية ، وأحياناً تبدو يائسة ، وأحياناً تنبض بالأمل ..

والسيارة الأجرة تلف بنا شوارع مدريد .. ثم تنحرف فى

شارع ضيق خافت الضوء ، وتقف عند باب كبير من الخشب الثقيل .. مغلق .. لا يكشف عن شيء ..

وسألت صلاح وهو يدفع أجر السائق :

- أين نحن ؟

وأجاب ضاحكاً :

- لا تسأل .. مفاجأة ..

ودفع الباب الكبير برفق ، فانفتح بسهولة .. ودخل ، وأنا خلفه ..

ووقفت مشدوهاً ..

وجدت نفسى فى حانة جذراتها مكسوة باللون الأحمر ، ومقاعدھا وأرائكھا مكسوة بالقطيفة الحمراء ، وعلى أبوابها ووافذھا ستر سميكة حمراء .. والضوء أحمر خافت ، ولكنه يكفى لتبين من خلاله الوجوه ، وقد كستها ظلال حمراء داكنة ..

وجوه بنات ..

كم بنت ..

عشرون .. ثلاثون .. لا أدرى .. ولكنهن يملأن الحانة .. بعضهن مسترخيات على الأرائك ، وبعضهن يتضحكن فى همس حول الموائد .. وبعضهن واقفات عند البار .. بعضهن فى ثياب إسبانية ، وبعضهن فى ثياب حديثة أنيقة غالبية .. وعند إحدى الموائد يجلس رجلان يبدو عليهما أنهما من أمريكا وحولهما خمس بنات .. وعلى البار يجلس رجل أسمر يعطو خذه جرح عميق ، يبدو عليه أنه مصارع ثيران قديم .. وشباب معجب بنفسه جالس فى ركن يداعب كأسه .. والكأس ملول فى يده من طول ما داعبه .

وزحفت وراء صلاح إلى أن جلسنا إلى مائدة ، وأنا مبهور الأنفاس .. خيل إلى أنى دخلت فى أحد ديكورات فيلم « إيرما

الغائبة .. أو أنى دخلت فى إحدى لوحات الفنان لوتريك الذى كان يرسم حانات باريس وغانيات باريس فى أوائل القرن العشرين .. ولم أحاول أن أقيس ما حولى بمقاييس الأخلاق .. أبياً.. لم تثرنى ساق عارية تطل من تحت ثوب فتاة .. ولا تأثرت بنظرة جريئة تلقى هنا أو هناك .. لقد كنت أرى أمامى صورة مجسمة من صور الإنسانية .. الإنسانية فى أقدم صورها .. الصورة التى لم يتغير موضوعها قط عبر التاريخ وإن تغيرت ألوانها .. وأحسست برغبة عارمة فى أن أرسم بقلمى صورة لكل وجه من الوجوه التى تحيط بى ، كما كان يرسمها لو تريك بريشته .. أرسمها من أعماقها . بكل ما فى أعماق الإنسان من شقاء وعذاب لا يجدان منطلقاً لهما إلا فى اللامبالاة .. فى ضحكات فارغة .. وابتسامات مزيفة .. وألوان فاقعة ..

وأشار صديقى صلاح - وهو يرشف الكأس الأولى - إلى باب صغير جانبى يؤدى إلى سلم ضيق منزو ، فرشنت درجاته بالبساط الأحمر .. ثم أشار بأصبعه إلى فوق .. وضحك ضحكة كبيرة ..

وفهمت .. وبعد أن فهمت ، لم أمتعض .. ولا قلبت شفتى إزدراء .. إنى لا أمتعض من الفقر ، ولا أزدري الفقراء .. والصورة التى أمامى بكل ما فيها من ألوان غنية ، هى صورة الفقر .. الإنسان الفقير ..

وعدت أدير عيني فى زوايا الصورة .. والرغبة العارمة تشدت بى أن أرسم كل وجه تقع عليه عيني .. أرسمه فى قصة .. وخيالى ينطلق خلف كل عينين محاولاً أن يكتشف تفاصيل القصة وسطورها ..

وانتهى صلاح من الكأس الثانية ، ثم التفت إلى جانبه ودعا فتاة إلى مائدتنا .. مؤكداً أنه لم ينتق هذه الفتاة ، ولكنها كانت - بالصدفة - أقرب فتاة إليه ..

وجاءت فرحة .. والتفتت إلى صديقتها قبل أن تقوم من مكانها كأنها تتباهى عليها ..

إنها قطعة من أسبانيا .. العيون السود ، الواسعة ، العصبية .. والشعر الأسود الطويل المدلى خلف ظهرها .. والوجه النحيل .. والوجنتان المشقوطتان .. والشفاة الرقيقة .. والأنف الكبير .. والقوام المشقوق الفاره .. ولم تكن ترتدى زياً أسبانياً .. كانت ترتدى زياً حديثاً أنيقاً كأنها انتقتة من أحد معارض الأزياء فى باريس ..

وجلست بجانب صلاح ..

لم تتحدث .. ولكنها مدت إليه وجهها كأنها تنتظر أمره أطلعيعه ..

ولم يأمرها صلاح .. ولا تحدث إليها .. ولكنه استدار إلى أعطاها ظهره .. واستمر فى حديثه معى كأنه لم يدع أحداً إلى مائدتنا .. وصوته الحاد المنفعل يملأ الحانة ..

ولحت الفرحة على وجه الفتاة تنهار ، عندما قابلها صلاح بهذا الإهمال . ولكنها ظلت فى مكانها ، وهى تطبق شفيتها فى قوة ، كأنها قررت الاحتمال .. والصبر ..

ثم بعد مدة ..

ربما مدة طويلة ..

همست فى حياء :

- هل أستطيع أن أطلب كأساً ؟

وأجاب صلاح كأنه أكرم الناس :

- طبعاً .. طبعاً ..

ثم أشار إلى الجرسون ، وطلب لها كأساً ..

ومع الكأس ، خرجت من أحد جوانب الحانة مغنية أسبانية وحلّفتها عازف جيتار ، وأخذت تطوف على الموائد وهي تغنى إحدى أغاني « الفلمنجو » أغان حزينّة ناعمة كأنها النواح .. ولحت الفتاة التي تجلس إلى مائدتنا ، تتمتم للحن بشفتيها ، وخيل لي أن عينها قد لمعتا بطبقة من الدموع ..

وفجأة استدار صلاح ناحية الفتاة ، وسألها :

- ما اسمك ؟

وأجابت الفتاة في فرح ، كان أزمتها قد انفرجت :

- بيتينا ..

وأطال صلاح النظر في عينيها ، ثم التقط يدها واحتفظ بها بين يديه ، وقال في صوت رقيق حالم لم أسمعها من قبل .. كأن شخصاً آخر يتحدث :

- بيتينا .. صدقيني .. إنى أحبك ..

وابتسمت بيتينا ابتسامة كبيرة كأنها فهمت ما يقصده ، وأشارت بأصبعها إلى فوق .. إلى حيث يؤدي السلم الضيق ..

وهز صلاح رأسه بالنفي ، وقال وهو لا يزال محتفظاً بقرته :

- لا .. لا أقصد هذا .. إنى أحبك .. ألا تعلمين ما هو الحب ..

إنك تشبهين الفتاة الوحيدة التي أحببتها في حياتي .. إنى أحس كإنى أحبك مثلما أحببتها ..

ونظرت إليه بيتينا في غباء ، كأنها تحاول أن تفهم ما يريد منها ..

واستطرد صلاح قائلاً وهو يطل بعينه في عينيها :

- اسمعى .. غداً تسافرين معي إلى روما .. سنقضى هناك يومين .. وبعدها نظير إلى جنيف .. ثم إلى باريس .. ما رأيك ؟

ونظرت إليه بيتينا كأنها تنظر إلى إنسان مجنون ، ثم أشارت بأصبعها إلى فوق ، وقالت :

- ألا تعتقد أننا نستطيع أن نبدأ من هنا ؟!

وقال صلاح وهو يتنهد ، ويشير إلى قلبه بكل يده :

- لا .. يجب أن نبدأ من هنا !

ولم تفهمه بيتينا ، وقالت وهي تضحك :

- تقصد صدرى ..

ولوى صلاح شفثيه في تأفف . وقال :

- لبس صدرك يا بيتينا .. قلبك !

ثم استدارت إلي ، وانطلق صوته كما كان ، وكأنه يشم من تمثيل دور الإنسان العاطفى .. وعاد يتحدث إلى حديثه الذي يضم

كل اللغات وكل المواضيع ..

وتنهت بيتينا كأنها تشد حبال الصبر ، وانكملت صامتة ..

وفجأة قرر صلاح أن يقوم لتناول عشاءنا في مكان آخر ، ونادى الجرسون ليدفع له الحساب .. ولمست بيتينا ذراع صلاح ، وفي عينيها نظرة متسائلة مسكينة .. وأجاب صلاح على تساؤلها

قائلاً :

- إنى أدعوك للعشاء معنا ؟

قالت كأنها تتوسل :

- نتعشى هنا ..

قال :

- لا .. في مكان آخر ..

قالت :

- تدفع لى عشرة آلاف بيزيتا ..
 قال صلاح وفى صوته حدة :
 - يا حبيبتي .. إن كل ما ملكه لك .. وأنا لا أريد منك إلا
 الحب .
 قالت وفى عينيها تردد وجل :
 - تدفع لى مقدماً ..
 والتفت إلى صلاح قائلاً :
 - ماذا أفعل بهذه الفتاة .. أحدثها عن الحب ، وتحادثنى عن
 الدفع ..
 وقالت بيتينا :
 - إنى مضطرة أن أعيش ..
 وقال صلاح :
 - إنى أعدك بحياة زاهية .. وأنت ترفضين !!
 وسكتت بيتينا كأنها يئست من ليلتها .. وجاء الجرسون ،
 وأخرج صلاح من جيبه رزمة كبيرة من الأوراق المالية ليدفع
 حسابنا .. ولحنت عيني بيتينا تبرقان فى نهم وجوع وهى تنظر
 إلى رزمة الأوراق المالية ، ثم تلفتت حولها .. لم يكن بالحانة كثير
 من الرجال .. ليس هناك أمل فى أن تجد رجلاً آخر لهذه الليلة .
 وانطلقت قائلة كأنها تتشبث بقطار الحظ :
 - انتظر .. سأتى معك .. ولكنى يجب أن أغير ثوبى .. إن هذا
 الثوب ملك لصاحب المحل ..
 وابتسم صلاح وقال كأنه انتصر :
 - سانتظر ..
 واختفت بيتينا ، وصلاح يقول لى بصوته الحاد المرتفع :
 - إنى إنسان عاطفى .. إنى أدفع أى شىء بالحب .. ولا أدفع
 شيئاً بلا حب .

وقلت فى برود :
 - إنك لا تستطيع أن تشتري الحب .
 قال كأنه صادق :
 - إنى لا أشتريه .. إنى أبحث عنه !
 وحاولت أن أصدقه .. حاولت أن أصدق أنه يبحث فعلاً عن
 الحب .. ويبحث عنه هنا ، فى مثل هذه الحانات .
 وعادت بيتينا مرتدية ثوباً فقيراً .. وقد جمعت شعرها خلف
 رأسها .. وخيل إلى أنها فتاة أخرى .. إن مجرد تغيير الثوب ،
 يخلق فتاة جديدة ..
 وخرجنا من الحانة الحمراء .. وخيل إلى أن مدريد كلها تغير
 لونها بمجرد أن خرجت .. وقلت لصلاح :
 - إنه جو عجيب داخل هذه الحانة ..
 وأجاب صلاح :
 - إنه محل سياحى .. تشرف عليه مصلحة السياحة ..
 الأسعار محددة .. إن الأسبان يعرفون كيف يجذبون السياح ..
 وأحسست بكل شىء ينهار فى خيالى .. كأن يدأ قاسية امتدت
 لتسرق لوحات لوتريك التى كنت أعيش داخل إطارها .. أحسست
 أنى كنت أعيش فى صورة مزيفة .. رخيصة .. كهذه اللوحات
 المزيفة التى تباع للسياح .
 ووضع صلاح ذراعه فى ذراع بيتينا ، وسرت بجانبهما أستمع
 إلى أعجب حوار يمكن أن يدور بين رجل وامرأة ..
 صلاح يتحدث عن الحب ..
 وبيتينا تتحدث عن ليلة تقبض فيها عشرة آلاف بيزيتا ..
 وخيل إلى أن بيتيناً أصدق وأشرف من صلاح ..
 صلاح يحتال على الواقع ..

وبيتينا ليست محتالة ..

والشوارع غسلها المطر .. وانعكست عليها أضواء المصابيح ، كأن كل مصباح يلقي بحمله على الأرض .. والجو فيه هذه البرودة الخفيفة اللذيذة المنعشة .. وقالت بيتينا :

« ألا نركب سيارة .. ؟ »

وقال صلاح كأنه يتباهى بى أمامها :

- إن معنا فناناً كبيراً .. والفنانون يحبون المشى بعد منتصف الليل .. وسنأخذه إلى حيث يتناول الفنانون عشاءهم ..

ثم نزع ذراعه من ذراعها والتفت إلى وعاد إلى حديثه المنطلق الذى تختلط فيه كل اللغات ، بكل المواضيع ..

وخيل إلى أنه نسيها .. نسى بيتينا . إننا نسبقها بخطواتنا الواسعة ، وهى تسير وراءنا ، متعبة ، منهكة ، يتعثر كعبها العالى فى بلاط الشارع . وكنت أتعمد أن أقصر خطواتى حتى تلحقنا بيتينا ، ولكننا لا نلبث أن نعود . ونسبقها .. والتفت إليها .. ومع أمارات التعب والإنهاك التى تكسو وجهها لحت فى عينيها الواسعتين نظرة غيظ وحقد تسلطها على صلاح .. كأنها تهم أن تطعنه فى ظهره ..

وقلت لصلاح :

- إن الفتاة متعبة .. ألا نركب تاكسى ..

وقال صلاح بصوته الحاد المنطلق :

- إنك لا تعرف بنات مدريد ..

ونقل الموضوع بسرعة إلى موضوع آخر .. وقاطعته بحدة

قائلاً :

- أنا شخصياً متعب .. أفضل أن أركب ..

وقال ورنه صوته العالى لم تتغير :

- خطوتين ونصل ..

ودخلنا فى حوارى مدريد .. وبيتينا تعترض .. وأنا أعترض .. وصلاح يضحك .. وخيل إلى أن فى ضحكته قسوة وتشفياً ..

وحارة بعد حارة ..

ثم وصلنا ..

وصلنا إلى « مسمط » ... مطعم يبيع لحمة الرأس ، والكرشة ، والكوارع ..

وصاح صلاح متباهياً :

- هذا المحل اكتشفته بنفسى .. هل كنت تصدق أن فى مدريد مسمطاً ..

وصاحت بيتينا فى غيظ :

- لقد اكتشفته وأنا فى الثالثة من عمري .. واكتشفه أبى من قبلى ..

ثم بصقت على الأرض فى قرف ..

ولكنها اضطرت أن تأكل لأنها كانت جائعة ..

واضطرت أن أكل لأن صلاح بإلحاحه وبصوته العالى الحاد ، أرغمنى على الأكل ..

وقالت بيتينا وأمامها عظام الرأس التى أكلت لحمها :

- قل لى بصراحة .. ماذا تريد منى !؟

وانتهى صلاح من مضغ قطعة من لسان الخروف ، ثم أمسك بيدها وقال :

- أريدك كلك ..

قالت وهى تكاد تذبجه بعينيها :

- إلى أين نذهب من هنا ؟

قال :

- معي دائماً ..
ونظرت إلى كأنها تشهدني على سخافة صديقي ، والغيظ يكاد
يسحب الدموع من عينيها ..
وقلت كأنني أحاول أن أساعدها :
- أظن أننا يجب أن ننام ..
وأخرج صلاح محفظته ودفع الحساب ، وأطلت بيتينا في
المحظة بعينين متوسلتين ، وقالت :
- ألا تعطيني شيئاً الآن ..
قال صلاح وهو يعيد محفظته إلى جيبيه :
- صدقيني .. كل ما أملك سيكون لك ..
وخرجنا إلى الحارة ..
ومن حارة إلى حارة ..
وفي حارة سمعنا صوت أنين .. وتلفتت بيتينا حولها ، ثم
صاحت :
- إنه طفل ..
وركعت على الأرض بجانب طفل في الخامسة من عمره يرقد
بجانب جدار بيت ، يبكي ..
ولأ أدري ما هي حكاية الطفل .. ولكنني سمعت صوت صلاح
يصيح في حدة :
- اتركه في حاله ..
وصاحت بيتينا :
- لا أستطيع أن أتركه ، إنه يكاد يموت من البرد ..
وصاح صلاح :
- اتركه .. إننا لسنا جميعاً إسعاف .. سيعثر عليه رجل
البوليس بعدنا ..

وصاحت بيتينا :
- سأأخذه معي ..
وصاح صلاح :
- سأتركك معه .. إنني ذاهب .. ذاهب حالاً ..
وصرخت بيتينا :
- اذهب عليك لعنة الله ..
وحملت الطفل بين ذراعيها ووقفت به ..
وذهب صلاح فعلاً ..
ووقفت حائراً لا أدري ماذا أصنع .. لو كان معي تقود
لأعطيها ما معي وذهبت أنا الآخر ، ولكن ليس معي مليم واحد ،
فقد هبطت مدريد صدقة وأنا في طريقى إلى الدار البيضاء بدعوة
من إحدى الشركات السينمائية .. ثم إنى لا أعرف شيئاً من اللغة
الأسبانية .. لا أعرف شيئاً أبداً ..
وظللت واقفاً أتخبط في حيرتى ..
وبيتينا تحمل الطفل بين ذراعيها . وتتنظر إلى بعينيها
الواسعتين فى تساؤل .
ولاح شبح أحد المارة .. ثم جاء مار آخر .. وبدأ الناس
يتجمعون حول بيتينا والطفل .. يتحدثون بالأسبانية .. كلام كثير
لم أفهم منه شيئاً ..
ونظرت إلى بيتينا ، كأنى اطمأنتت عليها .. ثم استدرت .. وقبل
أن أبتعد .. صاحت ورأى :
- هيه .. أنت ..
والتفت إليها .. فقالت وابتسامة ضعيفة على شفيتها :
- شكراً ..

إنها تشكرنى لمجرد أنى وقفى معها إلى أن تجمع الناس حولها .. وذهبت ..

•••

ووجدت صلاح ينتظرنى فى نهاية الحارة .. وسرت بجانبه ونحن صامتان .. كل ضجته صمتت .. وخيل إلى أنه يتنفس فى صمته كأنه يلهث .. كأنه يختنق .. وركبنا سيارة أجرة عندما وصلنا إلى الشارع الكبير .. ولم نتكلم فى السيارة .. إلى أن كدنا نصل إلى الفندق ، وفجأة انطلق صلاح قائلاً :

- أدرى لماذا لم أتزوج .. لقد كنت أحبها .. ولكن كان لها طفل .. الأطفال دائماً يقفون فى طريقي ..

ولم أر صلاح من يومها ..

ولا أدرى متى ولا أين سأراه ..

السؤال

اللون الآخر..

الطائرة تابعة لشركة « إير أفريكا » وهى فرع من شركة « إيرفرانس » . ولكن الفرق بين طائرات إير أفريكا وطائرات إيرفرانس ، يوازى الفرق بين تاكسى أرياف ، وسيارة عبد الحليم حافظ البوك ريفييرا موديل ١٩٦٥ .. والسبب ، أن معظم ركاب إير أفريكا من الزوج ، ومعظم ركاب إير فرانس من البيض !

وكنت عائداً من « باماكو » عاصمة جمهورية مالي ، بعد انتهاء مؤتمر اتحاد الصحفيين الأفريقيين الذي كان منعقداً هناك .. فى طريقى إلى « دكار » عاصمة السنغال .. ولحققت طائرة « إير أفريكا » فى آخر لحظة .. تشعبطت فيها بنفس الطريقة التى تعودت فى طفولتى أن تشعبط بها على ترام العباسية .. ووجدت نفسى محسوراً داخل الطائرة الصغيرة بين شابين عرفتهما أثناء جلسات المؤتمر .. أحدهما « كوفى كمفورت » ، والثانى « ريجنالد رايلي » .

وكوفى كان أحد أعضاء وفد غانا فى المؤتمر .. وكان عضواً معى فى اللجنة السياسية .. وهو شاب طويل ، له شارب أسود لا يكاد يميز عن لون وجهه ، ويصنف شعره الأكرت الخشن فى هرمين عاليين ، كهرمى خوفو ومنقرع ، ويضع بين أسنانه دائماً « بايب » كبيراً كالحلزون ، على الطريقة الانجليزية .. وقد أتعبنى

كوفى كثيراً أثناء مناقشات اللجنة السياسية ، خصوصاً عندما عرضت اتخاذ قرار بإدانة إسرائيل .. ولم يكن ما أتعبنى منه هو منطلقه فى المناقشة .. ولكن لهجته .. إنه يناقش فى لهجة متعالية مستفزة تنضح إحساساً معقداً بالعظمة .. وأهل غانا هم أكثر أهل أفريقيا اعتزازاً وتفاخراً بأفريقيتهم .. اعتزاز يبلغ حد التحدى .. والرئيس نكروما هو الذى أثار فى مواطنيه هذا الاعتزاز وهذا التفاخر .. وهو صاحب دعوة إلى القومية الأفريقية .. وقد رأيت على جدران مبنى الحزب ، عندما زرت أكرا عاصمة غانا ، لوحات سادجة ترسم تاريخ غانا على أنها الدولة التى ألهمت الإنسانية جميع الفنون والآداب والعلوم ، من قبل اليونان ، ومن قبل المصريين القدماء .. لوحة تمثل شيشيرون وهو يتلقى فن الخطابة من خطيب غانى .. ولوحة تمثل أفلاطون وهو يتلقى أصول الهندسة المعمارية كانت امرأة من غانا .. و .. و .. وبصرف النظر عما فى هذه اللوحات من مبالغات تاريخية ، فإن الهدف منها هو إحياء الاعتزاز القومى بين الأفريقيين بعد أن قضى المستعمرون مئات السنين يعترضون عزة أفريقيا فى محاولة لإحالة أهلها إلى عبيد ، والإبقاء عليهم عبيداً .. ولكن كوفى كان طرازاً آخر من الشباب غير ما أراده الرئيس نكروما .. إن اعتزازه بأفريقيته تضخم إلى حد أن أصبح نوعاً من مركب العظمة ، وانتفخ إلى حد أن أى خدش غير مقصود ، يجعله ينفجر .. ورغم ذلك .. رغم المناقشات الحادة العنيفة التى دارت بيننا أثناء انعقاد المؤتمر .. فقد تصافحنا عقب المؤتمر ، وحاولنا أن نكون صديقين ، على عادة المثقفين الذين يمتازون بالنفاق الثقافى .. والنفاق الثقافى غير النفاق المادى . النفاق المادى تحتاج إليه عندما تريد مصلحة

مادية من إنسان ما .. قرض ، أو وظيفة ، أو سيجارة .. أما الثقافي الثقافي فقد تحتاج إليه حتى لو لم يكن لك مصلحة مادية .. إنما تحتاج إليه للحفاظ بخصوصك في الرأي حتى تستمر المناقشة بينكما ، لأن المناقشة هي ممارسة الثقافة ومظهرها ، فإذا لم يكن لك خصوم حرمت من المناقشة وبالتالي حرمت من ممارسة ثقافتك .. فإذا كنت من المثقفين السياسيين ، وتوليت الحكم فإن الحكم يغنيك عن الثقافة ، وبالتالي يغنيك عن ممارسة الثقافة .. أي أنك لن تكون في حاجة إلى المناقشة .. وبالتالي يحق لك أن تقتل بقية المثقفين .. وأنا وكوفي لم يكن أحدنا يحكم الآخر ، ولذلك لم يكن أحدنا يستطيع أن يقتل الآخر .. بل كان كل منا في حاجة إلى مناقشة الآخر حتى يمارس ثقافته ويتظاهر بها .. لذلك نافع كل منا الآخر ..

هذا عن كوفي كمفورت ..

أما ريجنالد رايلي .. فهو صحفى انجليزي لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، ورغم ذلك فهو يبدو كأنه صورة قديمة للمستعمرين الإنجليز في العصر الفيكتوري .. سمين « مريب » أحمر الوجه دائماً ، كأنه يعاني عقدة الخجل من جرائم أجداده ، ويضع بين شفتيه سيجاراً أسود يسيل عليه لعابه .. ويلبس بنطلون شورت ، لونه كاكي ، ينزل إلى ما تحت ركبتيه ، وعلى رأسه قبعة فلين كبيرة ، ويمسك في يده منشفة .. وكان يتسكع على أبواب المؤتمر ، ويندس بين أعضائه ، ويوجه أسئلته في لهجة متعجرفة ، كان كل عضو من الأعضاء مكلف بأن يقدم له تقريراً عن أعماله .. ولم أسلم من ملاحقة رايلي لى خلال أيام المؤتمر ، ولكنى كنت دائماً أهرب منه .. كان صوته الذى يخرج من أنفه كعمود الدخان الساخن ، يزعجنى وكانت رائحة البيرة وسيجاره الأسود ،

لمررنى ، وكان نوع أسئلته يربيني .. وربما كان هو الآخر لا يستريح إلي .. ولكن لأننا من المثقفين ، فقد أبقينا بيننا هذا الخيط من التفاهة الثقافي .. كل منا يبسم للآخر .. وتبادل بين الحين والحين مناقشة جوفاء تتركز فى كلمات رنانة منتقاة ، فتبدو كأنها مناقشة عميقة .. عمق كاذب .. وكل منا حريص على أن يثبت للآخر أنه من سعة العقل ، ورحابة الصدر ، بحيث لا يسمح لخلافاتنا الأيدولوجية بأن تقسد صداقتنا .. الصداقة الكاذبة أيضاً !!

وعندما دخلت الطائرة هزرت رأسى أحيى كوفى كمفورت ، وريجنالد رايلي ولكن كلاهما كان مشغولاً عنى فى نقاش حاد .. فقد ألقى رايلي بحقيبة يده الصغيرة على المقعد المجاور للنافذة بسجرد أن ركب الطائرة ، بينما كان كوفى يسبقه إلى نفس المقعد وأصر كوفى على أن يحتل المقعد ، وأصر رايلي على أن المقعد أصبح من حقه لمجرد أن حقيبته سبقته إليه .. واحتد النقاش بينهما أكثر .. صوت كوفى المبحوح يخرج من بين شفتيه الغليظتين ، وصوت رايلي الرفيع يخرج من أنفه الضيق ، وأنا واقف بينهما لا أتدخل .. إلى أن انتهى النقاش بأن رفع رايلي حقيبته من على المقعد المجاور للنافذة ، وجلس فيه كوفى ، وجلست بجانبه فى المقعد الأوسط ، وجلس رايلي فى المقعد الثالث بجانبى .

وطرنا .. والطائرة ترتعش وتهتز كأنها عصفور ينتفض من البرد .. وكوفى يطل من النافذة ، وأنفاسه تتهدج فى عصبية .. ثم فجأة التفت إلى رايلي ، وقال فى حدة ورنان لعابه ينطلق فى وجهى :

- يجب أن تعلم أن كونك أبيض ، لا يعطيك أى امتياز هنا ..

والتفت إليه رايلي وقال من طرف أنفه :
 - إنى لم أتصرف كرجل أبيض ، ولكنى تصرفت كصاحب
 حق ..
 وقال كوفى :
 - لم يعد للرجل الأبيض أى حق فى أفريقيا .. لا على أرض
 أفريقيا ، ولا فى سماء أفريقيا ..
 وقال رايلي :
 - ما الذى أثار موضوع الأبيض والأسود الآن .. و ..
 وقاطعه كوفى :
 - إنه دائماً موضوع الأبيض والأسود ، سواء كانت المعركة
 حول احتلال مقعد فى طائرة أو حول احتلال بلد ..
 وقال الانجليزى البارد :
 - إنه دائماً موضوع التقدم والتأخر .. الذين احتلوا البلد كانوا
 أكثر تقدماً من أهلها ، وإلا لما استطاعوا احتلالها .. وأنت تسمى
 التقدم أبيض والتأخر أسود ..
 وصرخ كوفى :
 - هذا منطق الاستعمار .. إن غانا تقدمت بعد أن خرج منها
 البيض ، أضعاف تقدمها خلال سنوات استعمارهم لها ..
 وقال رايلي فى سخرية باردة :
 - البيض لم يخرجوا من غانا .. وأنتم لا تزالون فى حاجة إلى
 أوروبا ..
 وقال كوفى وهو يحاول أن يهدأ حتى لا يفقد أعصابه كمتقف :
 - إننا نتعامل مع البيض على مستوى إنسانى .. ولكن البيض
 لا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم فى إطار الإنسانية .. إنهم
 يتوارثون أحاسيس أجدادهم من القبائل البربرية التى سكنت
 أوروبا .. الأحاسيس العنصرية الضيقة الغيبة ..

وأحسست بصواريخ من الهواء البارد تنطلق من مكان ما من
 الطائرة .. ومر مساعد الطيار ، فاستوقفته قائلاً :
 - هل أستطيع أن أجد عندك فرخاً من الورق الكرتون ؟
 ونظر لى مساعد الطيار فى دهشة ، وقال :
 - لماذا ؟
 قلت :
 - حتى أسد به النافذة فلا يتسلل إلينا الهواء !!
 ونظر إليّ مساعد الطيار وهو يلوى شفطيه ازدياء ، ثم ابتعد
 دون أن يجيبني ..
 وعدت أتتبع المناقشة بين كوفى ورايلي .. وكان كوفى يقول :
 - ما هى المشكلة فى جنوب أفريقيا .. أبيض وأسود .. ما هى
 المشكلة فى الكونغو .. أبيض وأسود .. ما هى المشكلة فى
 روديسيا .. أبيض وأسود ..
 وقال رايلي وقد ازداد احتقان وجهه وهو يكتم غيظه :
 - إنها دائماً مشكلة مصالِح .. إن لنا مصالِح يجب أن نحفظ
 بها ونحميها ..
 وقال كوفى :
 - مصالِح .. ما هى مصلحتكم فى أن تخصصوا للبيض عربات
 لا يركبها السود .. ما هى مصلحتكم فى أن تحرموا على السود
 ارتياد الفنادق التى يقيم فيها البيض .. ليس فى كل هذا عنصر
 المصلحة .. وإنما هو التعصب الغبى .. أحاسيس بربرية ..
 وقال رايلي :
 - إذا كان الأبيض لا يريد أن يقيم مع الأسود فى فندق واحد ،
 فلماذا لا يبنى الأسود فندقاً آخر لنفسه .. وتنتهى المشكلة ..
 وقال كوفى :

- لا .. إنها ليست مشكلة فنادق .. إنها مشكلة الإنسانية .. مشكلة محاولة الأبيض التعالى على الأسود .. وإذلاله .. حتى يبقية فى مستوى يمكنه من استعمارهم .. مستوى العبيد .. مستوى الخدم .. ولكن كل هذا سينتهى قريباً .. وسترى ..

وبدأت قطرات من الماء تتساقط من سقف الطائرة .. وأصابني الهلع .. خيل إليّ أن الطائرة ستغرق فى المطر .. ولكنى عندما نظرت خلال النافذة ، لم أر السماء تمطر .. واشتد بى الهلع .

وجاء مساعد الطيار ووضع جردلاً فارغاً فى الممر الذى يتوسط الطائرة ، لتتجمع فيه المياه المتساقطة .. وعندما ساله رايلى عن مصدر هذه المياه ، أجابه بأن جهاز تكييف الهواء داخل الطائرة قد أصابه عطل وهذه المياه تتساقط منه ..

ولم أعد أتتبع المناقشة الحادة بين كوفى ورايلى .. تشبثت بمقعدى فى خوف من أن تسقط الطائرة فى أى لحظة .. وسهام الكراهية والتحدى المتبادلة بين كوفى ورايلى تمر من أمام صدرى ، وتملأ أدنى بالطين ..



وحدثت المعجزة ..

وصلنا سالمين ..

ووجدنا أنفسنا نحن الثلاثة .. الأسود ، والأبيض ، والأسمر ، (أى أنا) فى سيارة واحدة تحملنا من المطار إلى قلب مدينة داكار .. المدينة التى تركت قرنسا عليها بصمات أصابعها العشر .. وهذات حدة المناقشة ..

وساد بيننا هذا النوع من النفاق الثقافى ..

وبدأ كوفى يشرح لنا معالم المدينة .. هذا هو مبنى البرلمان .. أحدث برلمان فى العالم ، وقد أقيم ميناه على الطراز الهندسى

الحديث .. طراز لا يعبر عن شخصية أفريقيًا ، ولا حتى عن شخصية فرنسًا .. إنما يعبر عن الذوق الشخصى للمهندس الفرنسى الذى وضع التصميم .. وهذا هو مبنى المحكمة العليا .. إنه أيضاً على الطراز الحديث ، ويقف على درجاته الرخامية بعض المحامين .. بعضهم أسود وبعضهم أبيض ، وقد ارتدوا جميعاً الرويات السوداء ، والقبعات المربعة التى يرتديها المحامون الفرنسيون فى محاكم فرنسًا .. وهذا هو الجامع الكبير .. إنه يبنى منذ عشر سنوات من تبرعات المسلمين ، ولكنه لم يتم بعد .. وتسعون فى المائة من أهالى السنغال . مسلمون ، ورئيس جمهوريتها - بالانتخاب - مسيحي !

وألتفت من داخل السيارة إلى أفواج المواطنين الأفريقيين وهى تسعى على الأقدام فى صمت ، فيخيل إليّ أنها ترسم جبلاً أسود غليظاً يلتف حول المدينة ذات الطابع الفرنسى ليخفيها .. ورائحة أفريقيا .. الرائحة الحادة الزاعقة تملأ أنفى ، وأحس أنها تتجمع فى زويزة تكاد تقتلع هذه الحضارة الدخيلة لتقيم مكانها حضارة أفريقية صميمة ..

واتجهنا إلى الفندق الذى اختاره لنا كوفى ..

وربما اختار لنا هذا الفندق بالذات لأنه يسمح للزواج بالإقامة

فيه ..

وبعد أن قيدنا أسماءنا فى سجل الفندق ، التفت كوفى إلي رايلى وبين شفثيه ابتسامته المتعالية المستفزة ، وقال بصوته

المبحوح و « البايب » بين أسنانه :

- أرجو ألا يزعجك أن تقيم فى فندق يشارك فيه بعض

الزواج ..

ورد رايلي بصوته المزعج الذى ينطلق من أنفه كصفارة قطار قديم :

- يكفى ألا يشاركنى أحد غرفتى .



والتقينا فى المساء حول مائدة فى بهو الفندق ..

كوفى يشرب الويسكى ..

ورايلي يشرب البيرة ..

وأنا أصب كاساً من الليمونادة الساخنة على معدتى المريضة .. وبدأ النقاش مرة أخرى بين رايلي وكوفى .. حاول كل منهما فى بادئ الأمر أن يتجنبه ، ولكنهما ما لبثا بعد الكأس الثانية ومع الكأس الثالثة أن احتد النقاش بينهما أعنف وأقسى مما كان خلال رحلتنا بالطائرة ..

أبيض ..

أسود ..

أبيض ..

أسود ..

وأحاول أن أخفف من حدة المناقشة ، وأن أنقلها إلى جانبها الموضوعى ، ولكن عبثاً .. المناقشة تحتد .. والألفاظ الجارحة تصبح أكثر جراءة .. وأصبحت أنتظر فى كل لحظة أن يرفع كوفى كأسه ويشق بها وجه رايلي ، أو يرفع رايلي زجاجة البيرة ويحطمها على رأس كوفى ..

ولكن ..

حدث العكس ..

وقف كوفى ، وعدل « الباب » بين أسنانه ، وقال :

- لماذا لا نذهب إلى مكان آخر ..

ووقف رايلي بعده وقال ولعابه يسيل فوق سيجاره الأسود :
- فكرة حسنة .

ودفع كل منا حسابه ، وخرجنا من الفندق ، وقد قفزت الشرايين الحمراء فى بياض عيني كوفى من أثر الويسكى ، وتهدلت شفتى رايلي من أثر البيرة ، وتلوت معدتى من أثر الليمونادة الدافئة ..

وسرنا قليلاً فى الشارع القريب ، ثم وقف كوفى يحدث سائق تاكسى بإحدى اللهجات المحلية ، ثم دعانا للركوب ..

وحملنا التاكسى إلى أطراف المدينة .

ثم وقف بنا عند أبواب حانة ، تشبه فى مظهرها حانات شارع كلوت بك القديمة .. ودخلنا ..

مجموعة من الرجال والنساء ، البيض والسود ، ينتثرون حول المائدة الخشبية الرخيصة ، كأنهم مجموعة من حجارة الشطرنج البيضاء والسوداء منتثرة فوق رقعة يلعب عليها اثنان من الهواة المبتدئين .. وفى الركن فونغراف عتيق تدور عليه أسطوانات تحمل الحاناً فرنسية قديمة .. وعلى « الكيس » يجلس رجل فرنسى سمين مشعر الذراعين ينظر إليك كأنه يشق جيوبك بعينيه ..

وجلسنا نحن الثلاثة فوق مقاعد « البار » العالية ..

وخلف البار امرأتان ..

امرأة فرنسية بيضاء .. تصبغ شعرها بلون أصفر فاتح .. عجوز .. ربما كانت فى الخمسين من عمرها .. يبدو أنها سفحت شبابها فى أزقة باريس ، وجاءت تبغ شيخوختها فى دكار .. وكان اسمها ، على ما أذكر ، « سوزيت » .. اسم يصغر شكلها بمائة عام ..

والمرأة الأخرى أفريقية .. شابة .. ربما كان عمرها لا يزيد على العشرين .. مشدودة القوام ، كأنها منحوتة من خشب العنبر .. تلمع بشرتها الأبنوسية كأنها ليل ينعكس عليه ضوء القمر .. وتلمع أسنانها البيضاء كومضة البرق كلما ابتسمت .. وكان اسمها « أدوا » .

وطلب كوفى كأساً من الويسكى ..

وطلب رايلي زجاجة بيرة ..

ولم أجد عصير ليمون دافئ ، فطلبت زجاجة مياه إفيان ..

وقال كوفى وعيناه المحمرتان تكادان تسقطان فى كاسه :

- إن تقدم البيض العلمى لا يعنى تقدمهم الإنسانى .. إن العقل عندما ينطلق بعيداً عن الإنسانية ، يضع نفسه فى خدمة الهمجية .. وقال رايلي وشفتاه المتدلّيتان لا تكادان تقويان على حمل أفاظه :

- إن العقل المتأخر لا يستطيع أن يضع نفسه فى خدمة الإنسانية ولا فى خدمة الهمجية ..

وبدأت المناقشة من جديد ..

أبيض ..

أسود ..

أبيض ..

أسود ..

والمرأتان تنقلان عيونهما وابتساماتهما بيننا نحن الثلاثة ، وتظاهراهن بتتبع المناقشة دون أن تفهما حرفاً واحداً منها .. فكناهما نتحدثان بالفرنسية ، ولا تفهما شيئاً من الإنجليزية التى نتحدث بها ..

وفجأة .. وبلا مقدمات .. وفى وسط المناقشة .. قفز كوفى من

على مقعده واقفاً ، والتفت إلى سوزيت وقال بفرنسية ركيكة .. وبلهجة أمرة وعيناه أشد احمراراً :

- سوزيت .. هيا بنا ..

وخرجت البيضاء العجوز المصبوغة الشعر من خلف البار ، ووضعت ذراعها فى ذراع كوفى ، واتجهت إلى باب جانبي مسدل عليه ستارة سوداء قذرة ، ويؤدى إلى عدة غرف أقيمت خلف الحانة ..

وضحك رايلي ضحكة مخمورة انسكبت من بين شفتيه المتهدلتين ، وصاح بفرنسية أشد ركافة ، فى وجه المرأة السوداء تكطعة الأبنوس :

- أدوا .. ماذا ننتظر !!

وخرجت إليه أدوا ..



وسمرتني الدهشة فى مقعدى .. وأنا أنظر خلف كوفى وسوزيت ، وخلف رايلي وأدوا .. أنظر إلى المرأة البيضاء فى ذراع الرجل الأسود .. وإلى المرأة السوداء فى ذراع الرجل الأبيض . وانحنيت فوق معدتى المريضة ، وأحنيت رأسى فوق كفى .. أفكر .. أفكر فى الإنسان .. الإنسان الأبيض والأسود ..

إلى أن عاد رايلي ..

ثم عاد كوفى ..

وعادت المرأة السوداء ..

وعادت المرأة البيضاء ..

وقال كوفى وهو يطلب كأسه الأخيرة :

- إنى ما زلت مصراً على أن التقدم العلمى لا يعنى تفوق

البيض كجنس ..

وقال رايلي :

- وأنا ما زلت مصراً على أن الزوج يعانون من عقدة التأخر ..

و

وصرخت ومعدتى المريضة تتلوى :

- أدوا .. أعطينى بلودي ماري ..

و « بلودي ماري » أي « ماري الدامية » أو « ماري الدموية » هو نوع من الكوكتيل ، مكون من الفودكا الروسية وعصير الطماطم ، يصلح للمعدة المريضة ..

وهزت أدوا رأسها في أسف ..

إن الفودكا الروسية لم تصل إلى دكار بعد ..

كوبا

نود القصب..

مدينة « كاماوى » .. عاصمة مقاطعة كاماوى ،
إحدى مقاطعات جزيرة كوبا .. وكنت أتمشى فى
الميدان الكبير الذى يتوسط المدينة أنا وصديقى
الكوبى مانويل ..

والميدان واسع يتصدره مبنى دار الكتب ، وقد أقيم على طراز
مبنى الكابيتول الأمريكى ، وتتوسطه حديقة كبيرة أقيم فيها كشك
للموسيقى من الرخام ، على الطراز اليونانى القديم ، وحول
الميدان مجموعة من محال الساندويتش والمقاهى ، وبينها مقاه
ثقافية .. مقهى للعب الشطرنج .. ومقهى للقراءة أقيمت على
جدرانها أرفف كثيرة تزدهم بالكتب والمجلات ، وكلها كتب
ومجلات سياسية ودعائية .. ومقهى آخر أشبه بمعرض الرسم
تغطى جدرانها لوحات من رسم زبائن المقهى أنفسهم ..

وجلست مع مانويل فى مقهى الشطرنج نلعب دوراً ..
ومانويل نسخة حرفية من صورة المثقف الشيوعى كما
تصورها رسامو الكاريكاتير فى العالم أجمع .. القوام الرفيع ..
الرفيع جداً .. جلد على عظم .. والرأس الضخم الذى يهتز فوق
العنق النحيل حتى يخيل إليك أنه سيقع من فوقه .. والوجه
المصوص .. والعينان المكودتان اللتان ترتعشان فى عصبية
خلف زجاج النظارة السميك .. والابتسامة الساخرة المتعالية التى

تتدلى من بين الشفتين الرفيعتين الباهتتين .. والنقاش الدائم الذى
لا يهدأ ولا يكف أبداً .. وهو عضو فى الحزب الشيوعى وأستاذ
فى جامعة هافانا .. وأحد المسئولين عن شئون الدعوة والفكر ..
ويبدو أن له مكانة خاصة ، فقد كان يستقبل فى كل مكان باحترام
كبير .. احترام تحس أن فيه كثيراً من الرهبة والخوف .. ورغم
ذلك فعمره لا يزيد على السابعة والعشرين ..

وقال لى مانويل ونحن ننقل قطع الشطرنج :

- ما رأيك .. هل تأتى معى غداً لنقطع القصب ؟

ورفعت إليه عيني من فوق قطع الشطرنج ، وقلت :

- بكل تأكيد .. أكون سعيداً لو أخذتني معك ..

وعادت رءوسنا نتحنى فوق رقعة الشطرنج .. فى صمت ..

وكنتم أعلم أن حكومة كوبا والحزب .. قد جعلاً من موسم

جمع القصب - ويسمونه هناك « زفرا » - دعوة شعبية عامة ،

جندت لها جميع أجهزة الدولة وإمكانياتها .. الإذاعة تتحدث أربعاً

وعشرين ساعة ، عن « الزفرا » .. والتلفزيون .. والسينما ..

وإعلانات الحائط .. وذهب كاسترو إلى دار الإذاعة وقضى هناك

ست ساعات ، كتب بنفسه خلالها كلمات أغنية تدعو الناس إلى

الاشتراك فى جمع القصب ، أذيعت على نغمات لحن شعبى اسمه

« موزمبيكى » .. ووزارة العمل أغلقت أبوابها وصحب الوزير

جميع الموظفين حيث قضاوا أسبوعاً فى الحقول يجمعون

القصب .. والجامعات والمدارس منحت طلابها إجازة للاشتراك

فى جمع القصب .. و .. و .. كانت الدعوة إلى جمع القصب من

القوة بحيث أصبحت أشبه بالدعوة للحرب ، الذى يتخلف عنها من

القادرين يكاد يتهم بالخيانة .. أو السلبية .. أو الانعزالية .. أو

الرجعية .. أو بأية تهمة من التهم المسجلة فى قاموس الماركسية ..

وقد اشترك في جمع القصب خمسة وسبعون ألف مواطن .. وربما اشترك الكثيرون في جمع القصب تحت ضغط الخوف ، أو بدافع النفاق .. ولكن الدعوة نجحت .. وجمعت كوبا محصولاً من القصب لم تجمه في أى عام آخر ..

و ..

ونقلت الحجر الأخير فوق رقعة الشطرنج .. كش .. مات .. غلبت مانويل ..

ورفعت إليه عيني وأنا أبتسم في تواضع كأنى أعتذر له .. واتسعت الابتسامة الساخرة بين شفתי مانويل ، وقال :
- إنك شديد الذكاء !!

قلت :

- لا .. لا أعتقد أنى ذكى .. إن مجموعة النقلات التي رأيتها حفظتها « صم » منذ خمسة عشر عاماً .. وما زلت أنتصر بها .. قال :

- « الصمام » أيضاً يعتبر إنساناً ذكياً .. قلت :

- لا أظن .. الصمام قد يغلب في الجولة الأولى ، ولكنه لا يستطيع أن يغلب في الجولة الثانية .. لأن طريقته في اللعب تتكشف ، ولا يستطيع أن يبتكر طريقة أخرى ، لأنه ليس ذكياً .. قال وهو ينظر إلى من خلال زجاج نظارته السميك كأنه يحاول أن يتقّب رأسى :

- إن « الصم » يعوضك عن الذكاء .. فالتناس ليسوا في درجة ذكاء واحدة .. ولكى ترتفع إلى مستوى الأذكىاء يكفى أن « تصم » إنتاجهم الذهنى .

قلت وأنا أحس أن الحوار يتجه بعيداً عن لعبة الشطرنج :

- إن « الصم » لا يرفعك إلى مستوى الأذكىاء ، ولكنه يجعلك تعيش فى ظلهم .. وأنا أفضل أن أكون نصف ذكى ، على أن أعيش عائلة على ذكاء غيرى ..

قال وقد أصبح كل منا يفهم ما يقصده الآخر :

- إنك فى حاجة إلى أن « تصم » إنتاج الأذكىاء ، حتى تتخذ من هذا الإنتاج ثقافة تعينك على أن تتطوّر بذكائك .. قلت كأنى أعفّيه من الاستمرار فى هذا الحوار الذى قد يحدث إلى أن يغضب أحدنا :

- اتفقنا .. أو افقك على أن « الصم » قد يصنع إنساناً مثقفاً ، ولكنه قد لا يصنع إنساناً ذكياً .. والمتقف الذكى هو الذى يضيف شيئاً جديداً إلى أفكار غيره من المثقفين الأذكىاء ، والمتقف الذى لا يمتاز بالذكاء هو الذى يكتفى بترديد أفكار غيره ، بلا إضافة . بلا تطور .

ونظر إلى مانويل طويلاً كأنه يفهمنى جيداً ، ثم هز رأسه الكبير كأنه قرر أن يعفّينى من الرد على رحمة بى ، وقال :

- دعنا نلعب دور شطرنج آخر ؟ قلت :

- لا .. لأن ثقافتى فى الشطرنج لا تكفى إلا لدور واحد .. لو لاعبتك دوراً آخر فسأضطر أن أعمد على ذكائى .. وستغلبنى .. لأنى لست ذكياً .. ولذلك فأنى أفضل أن أحتفظ بانتصارى الأول ..

قال :

- هذا دليل آخر على ذكائك !!

قلت :

- هذا هروب .. هروب من هزيمة أنا واثق منها ..

قال ضاحكاً بلا شماتة ولا مرارة :
- ما دمت قد خفت من الهزيمة فقد اعترقت بها ..
قلت وأنا أزيح مقعدى وأقف على قدمي :
- هذا صحيح .. هزمتك في دور ، واعتبر نفسك هزمتني في دور آخر .. خالصين ..

وخرجنا من المقهى نضحك ، وذراع مانويل في ذراعى .. وقد كانت هذه هي عادتنا - مانويل وأنا - منذ أن التقينا في هافانا .. نتناقش دون أن يواجه أحدهنا الآخر بصراحة .. نظل نلف وندور دون أن نقترّب من النقطة التي قد تختلف عندها اختلافاً يؤدي إلى تمزيق متعة أحدهنا بصحبة الآخر .. وقد كان كل منا يعرف أنه مختلف مع الآخر اختلافاً كبيراً ، ورغم ذلك فقد كان كل منا مقتنعاً بأن هناك أساساً أعمق ، يربطنا معاً في خيط واحد .. أساس من الإيمان بالإنسان ، والتقدم بالإنسان ، والعدالة للإنسان ، والعلم للإنسان .. وكل منا يحترم حق صاحبه في تفكيره .. وكل منا يؤمن بأن الآخر مخلص في إيمانه لا ينافق فيه .. ولذلك بقيت صداقتنا حلوة ، ممتعة ، مفيدة لكليتنا . وأصبح خلافنا يزيد صداقتنا متعة ، ويزيد من فائدة صحبتنا .

وأوصلنى مانويل حتى باب الفندق الذي يقع في نفس الميدان ، وقال لى وهو يشد على يدي في حرارة :
- غدا صباحاً .. سامر عليك في السادسة ..
قلت في دهشة :
- السادسة ؟!

قال فى حزم كأنه يحذرنى من أن أناقشه :
- السادسة ..



وجاء مانويل فى الصباح .. السادسة تماماً .. فى سيارته الكاديلاك طراز عام ٥٩ - وآخر طراز من السيارات الأمريكية وصل إلى كوبا هو طراز عام ١٩٦٠ - وبعدها قطعت العلاقات بين البلدين ، وعاشت السيارات الأمريكية فى الجزيرة المتحررة بلا قطع غيار .. وتعدوا فى كوبا أن يفكوا سيارة ليستعملوا قطعها فى إصلاح سيارة أخرى .. ثم اضطروا أن يلقوا كثيراً من السيارات فى عرض الشارع لأنهم لا يجدون لها قطع غيار ، رغم أن بناءها لا يزال سليماً .. وكانت سيارة مانويل أنيقة فى مظهرها .. تلمع من شدة نظافتها .. ولكنها لا تكاد تتحرك حتى توقن أنه لم يبق فى عمرها سوى أسابيع ثم تلقى هى الأخرى فى عرض الشارع . كانت تزفر وترتعش كأنها جندي أمريكي فى أحد ميادين فيتنام .

وكان مانويل يرتدى بنطلوناً قصيراً « شورت » وقميصاً على اللحم ، وحذاءً ضخماً وجورباً ، ويمسك فى يده قبعة عريضة من قبعات الفلاحين : « سومبريرو » .. كان يبدو كأنه عالم آثار فى طريقه إلى الصحراء ليفتح مقبرة ، أكثر منه مزارعاً فى طريقه لجمع القصب ..

وأعطانى مانويل سومبريرو أخرى ، قائلاً فى هدوء كأنه لا يزال نائماً :
- ستحتاج إليها ..

وسارت بنا السيارة ، تزفر وترتعش .. حتى أوصلتنا إلى خارج المدينة .. وهناك التقينا بقافلة من السيارات اللورى الكبيرة .. صناعة روسية .. مزدحمة بالشبان والشابات .. كلهم يضحكون ويهللون ، ويصرخون ..
وانتبهنا - مانويل وأنا - على مرأى الوجوه الضاحكة المهللة ..

وتركنا سيارتنا ، وقفزنا فى أول لورى لحقنا به ، وحشرنا أنفسنا بين الشبان والشابات ..

وتحركات القافلة تشق الطريق الممتد عبر الأرض الخضراء .. كل شيء أخضر .. والسهول من حولنا ترتفع وتنخفض كأن الدنيا تلعب فى مرح .. وأشجار الموز ، وجوز الهند ، والنخيل الأبيض والأناناس ، والسيلاس ، تقف مصطفة كأنها تصفق لنا ، وتهتز وراءنا كأنها تحاول أن تلحق بنا ، وترتفع فى السماء كأنها ترفع أذرعها إلى الله بالدعاء لنا .. وارتفع من بين البنات والأولاد المحشورين فى اللورى صوت جيتار .. لحن سريع مرح .. وارتفع صوت الجميع فى أغنية مرحة صاخبة ، وبدءوا يصفقون بأيديهم ويدبذبون بأقدامهم ، دبات منتظمة منغمة على الطريقة الاسبانولية .. والتفت إلى صديقى مانويل .. إنه يصفق ويدبذب ، ويعنى بأعلى صوته ، ونظارته تسقط على أنفه بين الحين والحين .. وأحسست بدمائى تتحرك بقوة وحماس فى عروقى .. وصفقت أنا الآخر .. ودبذبت . ورفعت صوتى أجارى للحن المرح الصახب دون أن ألفظ كلمات الأغنية التى لا أعرفها .. إنى أحس بشبابى كله يعود إلى .. أحس بالقوة .. أحس بالدماء تملأ ذراعى حتى خيل إلى أنى أستطيع أن أجمع قصب كوبا كله فى لفة ذراع واحدة .

ووصلنا إلى الحقل الذى ستعمل فيه ..

سبقنا إليه عشرات الشبان والشابات .. بعضهم يببب فى الحقل منذ عدة أيام .. وقد مدوا بين فروع الشجر قطعاً من القماش الثقيل ينامون عليها .. ومجموعة من البنات التفتن حول نار موقدة تحت قدر كبير يعددن حساء الفول الأسود .. وهو الفول الذى ندمسه ، ولكنه أسود ، وحباته أصغر حجماً .. وهو

الغذاء الشعبى فى كوبا ، كالعدس عندنا .. ياكلونه مع الأرز .. ويطبخونه كأطباق العدس .. ويصنعون منه حساء لذيذاً شهياً .. وفرقة من ثلاثة شبان يعزفون الجيتار تطوف بجماعات الشبان والشابات .. وحلقة تتوسطها فتاة ترقص على صفقات الأيدى .. وعربات صغيرة تجرها ثيران تحمل براميل الماء .. والعربة مزينة بالورد .. وعند أذن كل ثور وردة .. إنه ليس ميدان حرب .. إنه مهرجان .. مهرجان مرح صახب ..

ووقفنا فى طايور ، أمام القدر الكبير الممتلىء بحساء الفول الأسود وفى يد كل منا وعاء من الصاج .. وفتاة حلوة شعرها مضفر على كتفها ، واقفة بجانب القدر تملأ لكل منا وعاء .. مغرفة واحدة .. لقد طمعت فى مغرقتين ، ولكنى خجلت أن أطلب ، خفت أن أربك ميزانية المهرجان كله .. إنه الذى حساء ذقته فى حياتى .

ثم وزعنا على خطوط القصب ، وأعطى كل واحد منا « ماتشته » ، وهو سكين ثقيل طويل أشبه بالساطور ، ولكنه أطول منه ، يقطعون به القصب ..

ووقف مانويل وفى يده الماتشته ، وعلى رأسه السومبريرو العريضة . ينظر إلى أعواد القصب نظرة علمية ، كأنه يبحث فى ذاكرته عن نظرية تشرح طريقة قطع القصب ..

ووقفت بجانبه أرقبه حتى أفعل مثله .. وتردد مانويل طويلاً .. كان يرفع ذراعه بالماتشته إلى أعلى ، ثم يعود ويخفضها ، كأن قلبه لا يطاوعه على ذبح عيدان القصب . وأنا ما زلت واقفاً أرقبه فى صمت . واقترب منا فلاح كوبي عجوز .. أسمر كالبن المحروق ، شققت وجهه التجاعيد ، كان وجهه قطعة من الأرض الجافة العطشى ..

يضع على رأسه سومبريو قديماً متآكلة ، ويرتدى زى الفلاحين .. السروال الأبيض ، وقميصاً أبيض واسعاً يشبه « الوابيرا » وهو القميص الذى يرتديه أهل المدن ، ولكنه أوسع وأرحب .. وفى يده ماتشته ..

وهز مانويل رأسه يحيى الفلاح العجوز فى صمت ، وعاد ينظر إلى عيدان القصب فى تردد ..

ولم يرد الفلاح العجوز تحية مانويل . ظل مركزاً عينيه عليه ينظر إليه فى صمت .. وخيل إلى أن فى صمته كثيراً من القرف والازدراء ..

ومانويل لا يزال يبحث عن نظرية يقطع بها عيدان القصب . ورفع الفلاح العجوز ذراعه بالماتشته ، وانحنى حتى كاد رأسه يلامس الأرض ، ثم ضرب ضربة واحدة قطع بها ثلاثة عيدان من القصب ..

ثم رفع العجوز رأسه ونظر إلى مانويل ، كأنه يقول له :
- هكذا يقطعون القصب ..

ورفع مانويل الماتشته وانحنى نصف انحناء ، وضرب عيدان القصب .. ولكن ضربته أصابت عود القصب فى منتصفه ، لا عند الجذر ، وكانت ضربة ضعيفة ثنت العود ولكنها لم تقطعه ..

وقلب الفلاح العجوز شفتيه فى قرف شديد .. وانحنى مرة ثانية حتى كاد يلامس الأرض ، ورفع الماتشته بذرار ولوى عيدان القصب بالذراع الأخرى . وضرب ضربته ، فقطع خمسة عيدان .. فعل هذا كأنه يكرر الدرس على تلميذ غبى ..

وزم مانويل شفتيه فى عناد ، وانحنى على قدر استطاعته ، وضرب العود الذى سبق أن ضربه .. فانتثى العود من موضع آخر ولم يقطع ..

وصرخ الفلاح العجوز :

- إنكم هكذا تفسدون المحصول ..

ثم انحنى مرة ثالثة ، ورفع الماتشته وقطع بضعة عيدان ، لاقاها بعيداً . ثم وقف ينظر إلى مانويل .. ومانويل ينظر إليه فى مسكنة وبلاهة كأنه يعتذر له ، ويستمله قبل أن يصدر حكمه عليه ..

وقررت أن أبدأ التجربة ..

نظرت إلى الفلاح العجوز لآلفت نظره إلى .. ورفعت الماتشته إلى أعلى ذراعى ، وهويت بها ، وإذا بى أهوى معها .. أسقط على الأرض وسط الطين .. لقد كانت الماتشته أثقل مما قدرت ، ولم أكن قد ثبت قدمى بحيث أحفظ توازنى .. فأخذتني الماتشته معها إلى الأرض ..

ونظر الفلاح العجوز إلى فى غيظ ، ثم بصق على الأرض بصقة كبيرة ..

وضحك مانويل ضحكة صاخبة ..

ثم مد يده إلى ليساعدنى على النهوض قائلاً :

- لا تياس .. سنتعلم ..

والقيت الماتشته بعيداً وأنا أنظر إلى الفلاح العجوز فى غيظ ، وقلت :

- لا أريد أن أتعلم جمع القصب .. فى بلادنا يحتاجون إلينا فى

جمع القطن ..

وعاد مانويل يضحك ..

ثم قطع ضحكته ونظر إلى الفلاح العجوز .. ثم نظر إلى أعواد القصب فى تحد .. ورفع الماتشته وهوى بها على عود القصب فقطعه ..

وابتسم العجوز ابتسامة لا تخلو من استهانة وابتعد .. وانها
مانويل على أعواد القصب ، يمزق بعضها ويقطع بعضها .. ويقطع
عوداً من نصفه ، وعوداً من جذره ..
وبدا يتعب ..

إني أكاد أسمع أنفاسه وهي تلهت .
العرق ينتثر على وجهه كحبات الكريستال .
والآلم ..

شفتاه المنفرجتان تتأوهان من الآلم ..
عيناه الجاحظتان تصرخان من الآلم ..
ولكنه لا يتوقف ..

إنه الآن يقطع القصب بجنون .. إنه يضرب وهو يزوم .. كأنه
يقطع رقاب أعدائه .. ويخبط بالماتشته خبط مجنون ، كأنه دون
كيشوت يحارب جيوشاً يصورها له وهمه .. إنه لم يعد يرى ماذا
يقطع .. إنه يقطع أى شىء .. ويضرب أى شىء ..
ولم يعد يرانى ..

لم يعد يحس بى .. لم يعد يحس بشىء .. وسقطت نظارته
على الأرض فالتقطها دون أن يتوقف عن الضرب .. ومرت فتاة
تحمل إناء ماء ، لعل أحدها يريد أن يشرب ، ولم يتوقف مانويل
عن القطع .. ومرت فرقة الجيتار تعزف لجماعى القصب ترفيهاً
عنهم ، فلم يحس بهم مانويل وربما لم يسمع موسيقاهم .. وظهره
.. ظهره المحنى على الأرض ، خيل إلى أنه تصلب فى انحناءته ..

وكننت أنظر إلى مانويل مبهوراً به .. فى إعجاب ..
إنه لم يكن يملك أى مؤهلات لقطع القصب إلا إرادته .. وقد
أثبت أن إرادته أقوى من ضعف جسمه ، وأقوى من جهله بقطع
القصب .. لقد استطاع بإرادته أن ينقل نفسه إلى عالم

اللاشعور .. ارتفع بإرادته فوق التعب وفوق الآلم .. وربما فعل
ذلك إحساساً منه بمسئوليته كعضو فى الحزب .. ربما قدر أن
انسحابه قد يضعف إرادة باقى الشبان والشابات وهو فى مركز
قيادى منهم .. ربما قدر أن عدم قدرته على الاستمرار قد تكون
شاهداً على أن الحزب يطلب من الشعب المستحيل .. ربما .. ربما ..
مهما كانت الأسباب .. إنه بطل ..

ومر الفلاح العجوز ..

وتنظر إلى مانويل وهو مندفع فى جنون يقطع القصب .. ثم
نظر إلى المحصول الذى جمعه .. ولوى شفثيه فى امتعاص ..
وقرف .. وذهب ..

ودق ناقوس بعيد ..

إتة ناقوس الغداء ..

وقمت إلى مانويل وأمسكت بذراعيه كأنى أرحم عيدان القصب
منه . وأرحمه من عيدان القصب ..

وتنبه إلى مانويل .. نظر إلى كأنه يسألنى ، أين هو .. وقلت
فى حنان :

= الغداء ..

والقى مانويل الماتشته من يده .. وراقبته وهو يعانى ألماً حاداً
حتى يقرد ظهره .. ووضعت ذراعى فى ذراعه لاساعده على
المشى ، دون أن أشعره .. وظل صامتا .. وعندما خرجنا من بين
عيدان القصب إلى حيث بقية الرفاق ، نزع مانويل ذراعه من
ذراعى ، وشد ظهره ، ووضع على شفثيه ابتسامة كبيرة .. ثم
خبط على ظهر أحد الشبان فى قوة ، وصاح وهو يضحك ضحكة
كبيرة :

- كم طناً جمعت .. إنى أتحداكم جميعاً .. أراهنك على زجاجة روم .. قل للرفاق أن ينتظروني عند الميزان ..



وعدنا .

و مانويل مستلق على ظهره داخل السيارة الكاديلاك القديمة ، مغمض العينين ، جاف كعود القصب المصنوع .. وقلت له برفق :

- هل سألك في المساء ..

وفتح عينيه ، وتدلّت على شفّيته ابتسامته الساخرة المتعالية ، وقال :

- لا أظن ..

وعاد وأغمض عينيه ..

كان مرهقاً إلى حد الإعياء ..

ولكنه كان سعيداً ، فخوراً بنفسه .



وسافرت في الصباح التالي إلى مقاطعة أوريغتي ، وسافر مانويل عائداً إلى هافانا ..

ويعد أسبوع عدت إلى هافانا ، وذهبت لزيارة مانويل في مكتبه بالجامعة ، واستقبلني مهلاً صائحاً :

- هل تدري كم جمعنا من محصول القصب .. ستة ملايين .. ستة ملايين طن .. بزيادة مليون طن عن العام الماضي .. وفي العام القادم سنجمع عشرة ملايين طن ..

وأخذ يحدثني عن محصول القصب ، وعن صناعة السكر ، وعن ثمن البيع ، وعن العملة الصعبة التي سيديرها القصب على

كوباً .. و .. و .. وكان يتحدث بحماس عجيب كأنه هو الذي جمع وحده هذه الملايين من أطنان السكر ..

وعندما هممت بالانصراف ، قال لي :

- انتظر أن أيسوس سيأتي الآن .. هل تعرف إيسوس .. إنه الفلاح العجوز الذي رافقتنا في قطع القصب .. لقد طلب مقابلتني منذ أيام .. وسيكون هناك بعد دقائق ..

وما لبث أن فتح الباب ودخل إيسوس ..

إنه يلبس نفس اللباس الذي رأيته به في حقل القصب .. وخيل إليّ أن تجاعيد وجهه قد ازدادت عمقا .. ولم يكن يبدو عليه أنه ميهور بزيارة العاصمة ، ولا بدخول هذا المبنى الفخم .. إنه يسير بخطواته البطيئة الثابتة ، وبين شفّيته هذا التعبير الذي ينطق بالقرّف والأزدراء ..

وقام مانويل يستقبله بترحيب حار .

ولكن إيسوس لم يبد عليه أي فرحة بلقاء مانويل .. استقبل ترحيبه في برود .. وصافحه بيد لا تهتز .. وخيل إليّ أن شفّيته قد ازدادت قرفاً ، ثم تجاهلني .. لم يصفحنى .. ولم يلتفت إليّ ، كأنني لا أستحق منه لفتة .

وجلس على المقعد الذي قدمه له مانويل دون أن يتكلم .. وبدأ مانويل يطلق حماسه في وجه إيسوس .. القصب .. ستة ملايين طن .. العملة الصعبة .. ولكن إيسوس لم يبد عليه أي انفعال ، ولم ينطق بأى كلمة .. كان مانويل يلقي بحماسة في بئر لا قرار لها .

وعندما يئس مانويل من إثارة اهتمام إيسوس ، وجره إلى الحديث ، سكت برهة ، ثم قال له في هدوء :

- أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك .

ورفع إيسوس عينيه المجددتين وركزهما في وجه مانويل ،
وقال في هدوء كأنه أشد رجال العالم ثقة في نفسه :
- لقد جئت لأساعدك ..
وبهت مانويل ، وقال :
- تساعدني .. تساعدني في ماذا ؟
وقال إيسوس بنفس الهدوء :
- أساعدك في عملك ..
ونظر إلى مانويل كأنه يشهدني على هذا المجنون ، ثم عاد
يقول لإيسوس :
- أتدرى ما هو عملي ؟
وقال إيسوس بلا مبالاة :
- لا ..
وقال مانويل وهو يشد حبال الصبر :
- إنى أعمل أستاذاً في الجامعة ..
وقال إيسوس دون أن يهتز له رمش :
- لا مانع .. سأعمل معك أستاذاً في الجامعة !
واتسعت عينا مانويل من الدهشة .. ومددت عنقي وقد ركزت
كل انتباهي إلى إيسوس لأعرف حكايته ..
وقال مانويل بعد أن هدأت الدهشة في عينيه :
- ولكنك لا تعلم شيئاً عن العمل في الجامعة ..
وقال إيسوس في برود :
- أنت أيضاً لم تكن تعلم شيئاً عن جمع القصب ، عندما جئت
إلى الحقل ..
وقال مانويل :
- ولكنك لن تستطيع أن تفيد الطلبة في شيء ..

وقال إيسوس في ارتزان :
- ثق أن الأضرار التي سأسببها للطلبة أقل من الأضرار التي
سببها لعيدان القصب ..
وخبط مانويل على مكتبه بقبضة يده .. وصاح :
- ولكن التدريس في الجامعة يحتاج إلى إعداد خاص ، وإلى
دراسة ، وإلى مران ، وإلى شهادات ..
وقال إيسوس :
- والقصب أيضاً .. إنه يحتاج إلى إعداد خاص ، ودراسة ،
ومران ، وشهادة بأك فلاح .. إنى أقطع القصب منذ كنت في
السادسة من عمري ، وأنت ..
ولوي إيسوس شفتيه وقال :
- إنك عندما كنت تضرب عود القصب من وسطه .. كنت أحس
كأنك تقسم وسطى أنا .. ثم لماذا جئت تقطع القصب ؟! وطنية !!
إن التدريس في الجامعة وطنية أيضاً ، وأنا وطني ..
ثم سكت قليلاً وعاد يقول :
- زمان .. كان أساتذة الجامعة يدرسون في الجامعة ،
والفلاحون يقطعون القصب .. فإذا أصبح من حق أساتذة الجامعة
اليوم أن يقطعوا القصب ، فقد أصبح من حق الفلاحين أن يدرسوا
في الجامعة ..
وكان إيسوس بهذا الكلام يثير مشكلة كبيرة نوقشت في جميع
الدول الاشتراكية .. مشكلة التخصص .. وكان يثيرها دون أن
يدري أنه يثير مشكلة ..
وهذا مانويل ، وانطلقت عيناه بشعاع ذكي ، ثم قال :
- اتقنا .. ستعمل معي أستاذاً مساعداً في الجامعة ..

ثم سحب كتاباً ضخماً فى الاقتصاد ، ومد به يده إلى إيسوس قائلاً :

- خذ هذا الكتاب .. ولخص منه محاضرة عن التخطيط تلقىها غدا على الطلبة ..

وثأول إيسوس الكتاب وقلبه بين يديه فى تافف ، وقال :

- ولكنى لا أستطيع أن أقرأ ..

وابتسم مانويل ، وقال بلا مبالاة :

- بسيطة .. نبدأ بتعليم الكتابة والقراءة ..

ثم قام من وراء مكتبه ، وجلس على مقعد بجانب إيسوس وسحب ورقة بيضاء وقلماً .. وقال وهو يكتب ألف باء :

- هذه ألف .. وهذه باء .. وهذه تاء ..

ووجدت إيسوس يحنى رأسه على الورقة ، والاهتمام الكبير يشد تجاعيد وجهه ، حتى بدا كأنه استعاد شبابه ..



بعد أسبوع آخر ، مررت على مانويل فى مكتبه ، ووجدت إيسوس هناك جالساً على مائدة صغيرة فى ركن من الغرفة .. وكان يكتب ..

وهمس مانويل فى أذنى :

- لقد انتهى من تعلم ألف باء .. إنه فى منتهى الذكاء .. هل

سمعت عن حملة محو الأمية التى قمنا بها ..

وكنت أعلم أن كاسترو وقف يوماً فى هيئة الأمم عندما زارها عام ٦١ وقال إنه سيمحو الأمية من كوبا فى خلال عام واحد ..

وعاد إلى كوبا ، وأغلق جميع المدارس والجامعات ، وجند الطلبة والمدرسين فى جيش كبير سُمى « جيش ألف باء » ثم أطلق هذا الجيش فى القرى والمصانع ، ليعيشوا تسعة شهور بين العمال

والفلاحين .. وكانت نسبة الأمية فى كوبا ٢٣,٦ فى المائة .

واستطاع هذا الجيش فى أقل من عام وبشهادة هيئة اليونسكو ،

أن يخفض هذه النسبة إلى ٣,٩ فى المائة فقط .. وأصبحت كوبا

من أرقى الأمم فى نسبة الأمية ..

وكان مانويل .. يريد أن يقول لى إنه يساهم الآن فى حملة

محو الأمية كما ساهم فى حملة جمع القصب .. وكان يقولها

مزهواً فخوراً بنفسه ..

ورفع إيسوس رأسه إلى .. وابتسم ابتسامة كبيرة .. لم يكن

بين شفتيه تعبير القرف والاشمئزاز .. كان تعبيراً آخر .. تعبيراً

أقرب إلى الفرحة بالحياة ، كأنه وجد شيئاً جديداً يعيش من أجله

سنوات أكثر .. وقال لى من بعيد :

- كومستا ..

يعنى .. ازيك !!

تشيكوسلوفاكيا

الدموع -

السوداء ..

عرفت « هونكا » فى براج ، عاصمة
تشيكوسلوفاكيا ..

كنت أقيم هناك فى فندق « الكرون » .. فندق فخم
على الطراز الأوروبى ، معظم نزلائه من السياح
وجمال الأعمال أغلبهم من الانجليز والأمريكان ..

وكنت أعود إلى غرفتى عادة بعد منتصف الليل .. وفى أغلب
الليالى كنت أجد « هونكا » جالسة فى بهو الفندق .. سيدة شابة ..
ربما كانت فى الثلاثين .. شعرها أسود ، عيناها كبيرتان عميقتان ،
وجهها نحيل ، لم يستطع الإجهاد الذى يبدو عليه أن يخفف من
جاذبيته .. وكانت تبسم لى وتظل تتبعنى بابتسامتها حتى أصل
إلى باب المصعد ، فتدير رأسها عنى فى بطاء وابتسامتها تذوب
بين شفطيتها ..

ولم أحاول أن أتقرب إلى هونكا ، أو أقدم لها نفسى .. اكتفيت
بابتسامتها .. وكان فى ابتسامتها شيء يجعلنى أرتبك ، وأتردد ،
وأكاد أتعثر فى مشيتى .. ورغم ذلك أحببت هذه الابتسامة ،
وتعودتها .. وفى الليالى التى لم أكن أجد فيها هونكا جالسة فى
مكانها من البهو ، كنت أنام قلقاً كانى أنام جوعان بلا عشاء ..
ورأها صديق مصرى جاء يوصلنى فى إحدى الليالى إلى
الفندق ، وهز كتفيه بلا مبالاة وقال فى استخفاف :

- إنها إحدى بنات التزوكس ..

و « التزوكس » هى العملة الثانية فى تشيكوسلوفاكيا .. وهى
مصرف من البنك نظير استبدال العملة الصعبة .. فإذا كان معك
« دولارات أو جنيهات استرلينية وذهبت بها إلى البنك ردها إليك
« تزوكس » .. سواء كنت من الأجانب أو المواطنين .. وقد
وضعت الدولة هذا النظام لتقضى به على السوق السوداء ..
والعملة الصعبة تصرف فى السوق السوداء بخمسة أضعاف
سعرها الرسمى ، فأصدرت الحكومة عملة التزوكس لتأخذ
لنفسها العملة الصعبة بدلا من تجارة السوق السوداء ، وجعلت
قيمتها أكثر من السعر الرسمى مرة ونصف مرة .. وافتتحت
محلات خاصة لا تتعامل إلا بالتزوكس .. فى هذه المحلات
تستطيع أن تشتري كل ما يشتري بالعملة الصعبة .. السجائر
الأمريكائى .. وأقلام باركر .. والسيارات .. و .. و ..

وصنف من النساء يظهر فى الفنادق الكبرى المخصصة
للسياح والضيوف الأجانب ، لا يقبل أن يتعامل معك إلا بالعملة
الصعبة ، أو « التزوكس » فأطلق عليهن اسم « بنات التزوكس »
Tux girls .. أو بنات العملة الصعبة .. ولا شك أن كل هؤلاء
البنات يعملن تحت رقابة الجهات المسؤولة .. ينقلن الأخبار ..
أخبار السياح والضيوف الأجانب .. وينقلن العملة الصعبة .. وهن
لسن تافهات .. إن كلا منهن تجيد لغة أجنبية واحدة ، على الأقل ..
ربما لغتين .. وربما ثلاثة .. وبعضهن من خريجات الجامعة .

واستطرد صديقى يحدثنى عن بنات العملة الصعبة ، وأكثر
ما يقوله لا يصل إلى أذنى ، فقد كنت مستغرقاً فى ابتسامة

هونكا .. الابتسامة التي تستقبلني عند باب الفندق ، وتحملني حتى باب المصعد ..



وفي ليلة عدت متعباً بعد جهد عنيف بذلته طول النهار في محاولة اكتشاف ما في داخل رؤوس الناس .. وكنت في حاجة إلى شراب ساخن أغسل به أعصابي .. أى شراب ساخن .. شاي .. ينسون .. قرفة .. أى شيء ..

واتجهت إلى بهو الفندق ..

ولم يكن في البهو أحد سوى « هونكا » .. جالسة في مقعدها التقليدي .. وابتسامتها الهادئة المهذبة معلقة على وجهي ..

وتعمدت أن أجلس بحيث لا أواجهها .. وأنا أتساءل : هل أنا حقيقة متعب وفي حاجة إلى شراب ساخن ، أم إنى أريد فقط أن أبقى لحظات في ظل ابتسامه هونكا؟! ..

وتلفت حولى أبحث عن جرسون .. ولم أجد أحداً منهم .. فنادت الحارس الليلي للفندق ، وطلبت منه شراباً ساخناً .. فأجابني في أدب أن الوقت متأخر .. والمطبخ أغلق أبوابه .. والجرسونات انصرفوا ..

وكانت المناقشة بيني وبين الحارس الليلي تدور بصعوبة .. بالإشارة تقريباً ..

وفجأة سمعت صوت هونكا من خلف ظهري ، تقول في إنجليزية سليمة :

- عفواً .. إنى أعرف مكاناً يستطيع أن يقدم لك الآن شراباً ساخناً ..

والتفتت إليها ..

وكدت أغرق في عينيها الواسعتين .. وبدأت في صوت متزن حلو كأنها تتحكم في كل نبضة من نبراته ، تصف لي عنوان المحل الذي يقدم شراباً ساخناً .

قلت وأنا أحاول أن أتعلق بابتسامتها حتى لا أغرق في عينيها :
- لا أظن أنى أستطيع أن أصل إليه وحدى .. هل نذهب معاً ؟
واتسعت ابتسامتها قليلاً ، وجذبت حقيبتيها ، وقامت واقفة دون أن تجيبني .. كأن دعوتى لم تكن في حاجة إلى جواب ..

ووقفت بجانبها ..

إنها أطول منى قليلاً ..

لا يهم ..

وخرجنا إلى الشارع نسير صامتتين في خطوات هادئة كأننا نرقص على نغمات كهوب حذاءينا وهى تدق على بلاط البازلت الذى يكسو الشارع ..

وقلت بعد فترة في صوت خفيض :

- اسمى حسن .. من مصر ..

وأنا فى الخارج - وفى غير المناسبات الرسمية - أقول إن اسمى « حسن » حتى أوفر على محدثى صعوبة نطق اسمى ، وهو أصعب نطقاً من « حسن » ..

وقالت تقدم لى نفسها :

- موجودتشك أوفاً ..

وضحكت وهى ترى الغباء فى عيني ، وشفطائى تتعثران وأنا أحاول أن أردد الاسم الذى ذكرته لى ..

ثم قالت :

- تستطيع أن تدعونى هونكا ..

ولم يكن من السهل على أيضاً أن أردد اسم هونكا ، فإنهم ينطقون الهاء مدموجة في ألف مضمومة ، بحيث يصيح لها رنة غريبة على لغتنا .. وردت الاسم وراءها عدة مرات حتى استطعت أن أنطقه صحيحاً ..
وقلت :

- إنه اسم له رنة غريبة .. كأنه اسم إحدى بنات الهنود الحمر..

وعادت تضحك وقالت :

- إن في عروقي دماء مختلطة كثيرة .. من يدري .. ربما كان بينها دم أحد الهنود الحمر ..

وخرجنا إلى شارع فاسلافسكى .. وقلت :

- هل سنسير طويلاً .. إننا نستطيع أن ننادى إحدى سيارات الأجرة ..

قالت وهى تشير بإصبعها إلى البناء المواجه :

- لا .. سأخذك إلى هذا الفندق ..

ونزلت بى إلى بديروم الفندق ..

إنه ملهى ليلى ، تعزف فيه فرقة موسيقية ، رقصات التشاتشا ، والتويست ، والشيك .. وعندما تسمع ألحان هذه الرقصات فى أى بلد من بلاد أوروبا الغربية ، لا تشعر بغربة ، ولا تحس بأذنيك تنتصبان كأنهما فوجئتا بصوت شاذ .. ولكن .. عندما تسمع نفس الألحان فى برج ، أو فى أى دولة من دول أوروبا الشرقية ، لا تستطيع أن تتمالك نفسك من التساؤل .. ثم تخرج من تساؤلك بحقيقة واحدة ، وهى أن الفن الموسيقى .. أقوى من الحدود ، وأقوى من المذاهب السياسية والاجتماعية .. إن

ألحان أمريكا تعزف فى روسيا .. وألحان روسيا تعزف فى أمريكا .. وفى أشد أيام الحرب الماضية ضراوة كانت الأغنية الشعبية بين جنود الحلفاء هى نفس الأغنية التى يغنيها جنود النازى .. أغنية « ليلى مارلين » .. حتى الولايات .. ويلات الحرب .. لم تستطع أن تصدق عن الوصول إلى شعب آخر ..

وجلسنا - هونكا وأنا - نتناول الشاي فى ركن من الملهى الليلى .. وهى تحدثنى عن وطنها تشيكوسلوفاكيا وربما كان معظم حديثها منقولاً عن نشرات السياحة والدعاية .. ولكنها كانت تتحدث كأنها تطلعك على أسرار كبيرة .. وصوتها الحلو المتزن ، يضع فى كلماتها وضوحاً ، كأنها تتكلم بخط كبير .. وخيل إلى فعلاً أنى عرفت منها عن تشيكوسلوفاكيا أكثر مما عرفته فى أى يوم آخر ، ومن أى إنسان آخر ..

وخرجنا من الملهى بعد قليل ، وعندما نسير على صوت كعوب أحذيتنا وهى ترن على بلاط الشارع ..

وأوصلتني حتى باب الفندق .. ونظرت إلى لتلتقى بعينى المترددتين المحرجتين .. وقالت :

- هل أستطيع أن أقدم لك خدمة أخرى ..

قلت :

- نعم .. أقبلى دعوتى على الغداء غداً ..

فابتسمت ابتسامتها الصغيرة المهذبة ، وقالت :

- غداً .. فى الواحدة .. هنا ..

ومدت يدها وصافحتنى .. وكانت يدها أقوى مما انتظرت ، فى قوة يد رجل .. واستطردت قائلة :

- مستر إحسان .. إنى سعيدة بمعرفتك ..

قلت وأنا أهز يدها :

- وأنا أيضا ..

وسحبت يدها من يدي ..

وابتعدت ..

واستدرت متجهاً نحو المصعد .. وفجأة تنبّهت .. لقد ذكرت

اسمى .. اسمى الحقيقي .. إحسان .. كيف عرفته .. من أين ؟

وأحاط بي الضباب حتى دخلت غرفتي .. ضباب الحيرة ..

والجزع ، كأنه يكفى أن تعرف اسمى لتكتشف سرى ..

وتكاثف الضباب فى عيني ، فنمت .



وفى اليوم التالى لم أحاول أن أكتشف كيف عرفت هونكا

اسمى ..

لا يهم ..

إنى لم أخفه إلا لأسهل عليه نطقه ..

وسلمت نفسى لها .. أخذتني لتناول الطعام فى مطعم يقع فوق

تل مرتفع يطل على مدينة براج كلها .. ثم زرنا بعد الغداء أحد

المتاحف .. ثم طافت بى محال « التوزكس » لأشتري بعض

الهدايا.. وفى المساء تناولنا العشاء سوياً فى مطعم يقع داخل

قصر قديم ، احتفظت له الحكومة بكل مظاهر أبهته وفخامته ،

ويقدم فيه الطعام للزبائن فى نفس الأطباق المذهبة التى كان

يستعملها صاحب القصر .. ونفس الملاق والشوك والسكاكين ..

ونفس الشمعدانات الفضية الرائعة ..

وبعد العشاء ، عدنا ..

ووقفنا أمام باب الفندق ، كما وقفنا ليلة أمس ، وقالت وعيناها

مستريحتان فوق وجهى ، وابتسامتها أكثر حلاوة وأكثر انزائاً :

- هل أستطيع أن أقدم لك أى خدمة أخرى ..

قلت وأنا أبتسم :

- نعم .. نتناول الغداء معا ، غداً ..

واتسعت عيناها من الدهشة ، ثم هزت كتفها ، وقالت :

- إنك تعطينى صورة جديدة عن رجال الشرق ..

ثم مدت يدها القوية وصافحتنى قائلة :

- غداً .. فى الواحدة .. هنا ..

وابتعدت ..



وتوطدت الصداقة بينى وبين هونكا .. أصبحنا نلتقى كل يوم ..

وطول اليوم .. وتأخذنى معها ، وأخذها معى ، إلى حيث تريد

وإلى حيث أريد .. وكانت صداقة حقيقية .. نظيفة .. ارتفعت فوق

مستوى « بنات التوزكس » .. كانت ترجمانة لى .. وسكرتيرة ..

ولكنها لم تكن أبداً إحدى بنات التوزكس .. حتى الهدايا التى

قدمتها لها ، لم تكن أكثر من الهدايا التى يمكن أن تقبلها أى فتاة

من خلال صداقة بريئة ..

وقلت لها ، وقد زال الحرج بيننا ، ونحن جالسان فوق إحدى

الربى الخضراء التى تطل على مدينة براج :

- ألا تلاحظين أننا تكلمنا فى كل موضوع إلا موضوعاً

واحداً ..

قالت وهى تجمع فى قبضتها بعض الحشائش وتنزعها من

جذورها :

- أى موضوع ؟

قلت :

- أنت ..

قالت بلا مبالاة :

- ماذا تريد أن تعرف عنى ؟

قلت :

- قدر ما عرفته عنى .. لقد حدثتك عن زوجتى ، وأولادى ..

وحبى الأول .. وكل شىء ..

قالت مبتسمة :

- هل تريد أن تتعرف إلى عائلتى .. إنها فى بلد آخر .. فى

بلسن ..

قلت :

- إنى أريد أن أتعرف إليك .. إلى قلبك .. لا شك أنك أحببت ..

ورفعت وجهها فى لفتة سريعة كأنها بوغتت ، ثم عادت

وأحنت رأسها ، وجمعت بعض عيدان الحشائش فى قبضتها

ونزعتهما من الأرض فى عنف ، وتمتمت :

- نعم .. أحببت ..

وسكتت ..

قلت وأنا أعتدل فى جلستى لأسمع قصة :

- وكيف انتهى الحب ..

قالت وهى تتنهد :

- مات ..

قلت وأنا أواسيها :

- فى حادث ؟

قالت فى بساطة :

- لا .. أعدم ..

قلت فى دهشة :

- لماذا ؟

قالت وهى لا تزال تدعى عدم المبالاة :

- جاسوس ..

وسكتت ..

وسكت معها .. خيل إلى أنه ليس من حقى أن أطلب منها

المزيد .. ولكن هونكا ما ليثت أن عادت تتكلم فى صوت خفيض ،

كأنها تغنى لنفسها أغنية حزينة :

- كنت أيامها طالبة فى الجامعة .. أدرس اللغات .. كنت أكثر

بنات الجامعة مساهمة فى النشاط الجامعى .. النشاط السياسى ،

والنشاط الرياضى .. وانتخبونى نائبة رئيس اتحاد الطلبة .. كنت

فرحة .. مرحة .. أفيض بالحيوية ، كان يومى أقصر من أن يتسع

لنشاطى .. وكنت أحب البريتش .. كان شاباً رائعاً .. ربما كان

صموتاً .. ولكنه كان يفيض حناناً ورقة ، رغم مظاهر القوة التى

يحملها فى زراعيه ، ورغم عينيه الجادتين العابستين .. وكان

عاملاً فنياً فى أحد المصانع .. تخصص فى صناعة أجزاء من

الطائرة .. إننا لا نصنع هنا الطائرات ، ولكننا نصنع أجزاء منها ،

نرسلها إلى روسيا حيث مصانع تجميع أجزاء الطائرة .. وكان

البريتش يقيم فى غرفة وحده ، وكنت أقضى معه معظم ليالى

الأسبوع .. أنتهى من يومى الجامعى ، وأحمل كتى وأذهب إليه ..

وربما لاحظت تردد بعض الأصدقاء عليه فى الليل .. وربما كان

كريماً معى أكثر من عادة الشبان التشيك .. ولكن لا شىء منه أثار

ريبتى .. كنت أحب كل شيء فيه . أحب صمته .. وأحب قوة ذراعيه .. وأحب عيني العابستين ومظهره الجاد .. وأحب رفته وحنانه وكرمه ..

وسكنت هونكا فترة وشفتاها منفرجتان كأنها تحاول أن تلتقط بهما شيئاً طار فى الهواء .. ثم عادت تقول :

- وفوجئت ذات صباح بمدير الكلية يستدعيني إلى مكتبه ، ثم يتركنى مع رجلين لا أعرفهما ، ولكنى خفتهما منذ أن وقع بصرى عليهما ..

وقال أحد الرجلين ، قبل أن يتبادل التحية معى :

- « هل تعرفين ألبريتش موجتشك ؟ .. ما علاقتك به » .

قلت وأنا أرتعد :

- « إنه حبيبى » .

قال كأنه يقذف فى وجهى بقنبلة :

- « هل تعرفين أنه جاسوس » ؟

وصرخت :

- « جاسوس .. لا .. لا .. لا يمكن .. ليس ألبريتش .. إنك تكذب ..

لعلك أخطأت .. و .. » .

وتركنى الرجل أصرخ ، وهو يسكب على صراخى نظرتة الجامدة ، حتى أخدمنى .. وبدأ يسرد لى تفاصيل تحركات ألبريتش التى تثبت أنه يعمل لحساب جهة أجنبية .. وبدأ يحدثنى عن مستقبل القوى العاملة فى بلدى .. وأقنعنى أن سلامة وطنى كلها قد أصبحت فى يدى .. وكل ما يريد منى هو أن أقنع ألبريتش أن ينتقل للسكن فى شقة أخرى مكونة من حجرتين أعدت له خصيصاً ، وجهزت بأجهزة التسجيل والمراقبة ..

ولم يخف عنى شيئاً .. شرح لى الخطة الكاملة التى وضعت لحصر كل نشاط ألبريتش ومعرفة الأشخاص الذين يتعاونون معه .. ثم قال لى فى لهجة أقرب إلى التهديد : إنى أصبحت مخيرة بين أن أعمل لبلدى ، أو أعمل لحبيبى .

وابتسمت هونكا ابتسامة مسكينة واستطردت قائلة :

- لم يكن الرجل فى حاجة إلى هذا التهديد .. فقد كانت أذنائى تطنان أثناء حديثه بأصوات أشبه بدقات طبول الحرب .. خيل لى أننا أصبحنا فى حرب .. وأنى أصبحت قائد لجيش الشعب .. وعلى أن أقوده إلى النصر .. النصر على حبيبى .. لا ، لم يعد ألبريتش فى تلك الأيام حبيبى .. لقد انقلب فى خيالى إلى عدو .. إنسان مخيف .. بشع .. يجب أن أحاربه .. وأقتله .. وعندما ذهبت إلى لقائه لم يستطع أن ينزع هذه الصورة من خيالى .. عيناه رأيتهما كعيني شيطان .. ذراعاه كأرجل الخرتيت .. رفته كملمس الثعبان .. وعندما جاء يقبلنى تشنجت شفتائى .. وعندما لف ذراعيه حولى تقلصت كل قطعة من جسدى .. ولكنى تحاملت .. وافتعلت الحب لأقوده به إلى حتفه .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أفتعل فيها الحب .. وقد أجدت افتعاله ..

وتنهدت هونكا كأنها تطلق من صدرها نارا مخبأة ، ثم عادت تقول :

- كان من السهل على أن أقنع ألبريتش بأن ينتقل إلى الشقة التى أعدت له .. فقد كان يثق بى .. كان يشك فى كل الناس إلا فى .. ثم لم ينقض ثلاثة أسابيع من وضعه تحت أجهزة التسجيل والمراقبة حتى قبض عليه .. قبض عليه وأنا معه .. وما كاد رجال المخابرات يسحبونه إلى خارج البيت ، حتى سكتت دقات طبول

الحرب عن أذنى .. سكت الطنين .. وأحسست كأن غشاوة انزاحت
عن عيني .. وعدت أرى الحب .. حبى .. إن البريتش حبيبي ..
حبيبي قبضوا عليه .. وجريت على السلم وأنا أصرخ ..
ألبريتش .. ألبريتش .. انتظر .. وتعلقت به وأنا أصيح ..
سامحنى .. سامحنى .. إني أحبك .. وأبتسم البريتش
ابتسامة صغيرة .. ولم يتكلم .. ودفعوه إلى داخل السيارة
الكبيرة..

وسكتت هونكا ..

وأحنت رأسها ..

ولحت دموعاً تسيل على خدها .. وكانت الدموع تسحب الكحل
من عينيها وتتلون بلونه .. كانت دموعاً سوداء ..

ولم أستطع أن أقول لها شيئاً ، بقيت صامتاً معها ..

وعادت هونكا تقبض على أعناق عيدان الحشيش وتنزعها من
الأرض ، ثم تمتمت قائلة وهى تخفى وجهها :

- لقد كدت أجن بعد هذا اليوم .. جننت فعلاً .. أصبحت أقضى

يومي وليلى أجرى فى الشوارع كأنى أهرب من شيء .. أهرب من

نفسى .. ثم سمحوا لى بأن أزوره فى سجنه قبل أن ينفذوا فيه

حكم الإعدام .. وكان قد علم أثناء محاكمته بانى قد اشتركت فى

تدبير الفخ الذى وقع فيه .. ورغم ذلك فقد استقبلنى من خلف

القضبان هادئاً ، رائعاً ، يفيض بالرقة والحنان .. وصممت على أن

أروى له القصة كلها .. أن أعترف له .. خيل إلى أن الاعتراف

سيريجنى ، كأنى أعترف أمام قسيس الكنيسة .. واستمع إلى

ألبريتش فى هدوء ، ثم مد كفه القوية من بين القضبان ومسح

على شعرى وقال :

- « لقد أديت واجبك .. وإنى واثق أننا لو عدنا من أول القصة
لا اتخذت منى نفس الموقف .. »

قلت له وأنا أقبل يده :

- « هل صفحت عنى ؟ »

قال مبتسماً ابتسامته الضئيلة :

- « لم تكن مشكلة أن أصفح عنك .. كانت المشكلة أن أصفح
عن نفسى .. »

قلت وأنا أتشبث بيده :

- « إذن ، أفل لى شيئاً .. »

قال :

- « وهل أستطيع الآن أن أفعل لك شيئاً .. »

قلت :

- « تزوجنى !!! »

قال وهو يكاد يضحك :

- « لا تكونى مجنونة .. »

وصرخت :

- تزوجنى .. تزوجنى .. أرجوك .. أتوسل إليك .. تزوجنى ..

لن أستطيع أن أعيش إلا إذا تزوجتنى .. »

كنت أريد أن أتوجه ولو على الورق .. كنت أريده أن يترك لى

اسمه قبل أن يعدم .. وبقيت أصرخ .. وأصرخ .. وهو يبتسم

ابتسامة صغيرة كأنه يشفق على ..

وتدخل الحارس الذى كان يقف معنا .. وجاء مدير السجن على

صراخى .. وأبلغنا رغبتى فى الزواج إلى الجهات المسئولة ..

ولكنهم رفضوا .. رفضوا أن يزوجونى لحبيبي .. قالوا إنه ليس

من حق الخائن أن يتزوج .. ووعدونى بوسام .. ولكنى رفضت
الوسام .. أريد أن أتزوج حبيبى .. أريد أن أغلق اسمه على
صدرى .. وأصروا على الرفض .. وأعدم ألبريتش فى اليوم
التالى ..

ومسحت هونكا الدموع السوداء عن خديها ، ثم عادت تقول :
- لقد جعلوا من ألبريتش عدواً للشعب .. كان كل الناس
يتطلعون إلى صورته فى الصحف ويصقون عليها .. ولكنى درت
بين الناس أقول لهم إنى زوجته .. وأطلقت على نفسى اسم
« موجوتشك أوفاً » .. أى ، مدام موجوتشك .. اسم عائلة
حبيبى .. ألبريتش موجوتشك .. وأصبح الناس ييصقون فى
وجهى أيضاً .. وأستريح لبصقاتهم كانى أغسل بها قلبى .. ثم
نقلونى إلى المستشفى ..
وابتسمت هونكا ابتسامة مسكينة ، وهى تتنهد ، ثم استطردت
قائلة :

- بقيت فى المستشفى أكثر من ستة شهور .. ثم خرجت ..
أحسن حالا .. واشتغلت .. ولكنى ما زلت أحمل اسمه ..
موجوتشك أوفاً ..

قلت :

- ماذا اشتغلت ؟

ونظرت إلى فى تردد ، ثم قامت واقفة ، وقالت :

- لقد أعطيتك يوماً حزينا .. دعنا نعود ..

ولم تجب عن سؤالى ..

وعدنا إلى المدينة ، ونحن صامتان .. وافترقنا عند باب الفندق ،
على أن نلتقى فى المساء ..

ولكنها لم تأت ..
انتظرتها طول الليل ، جالسا على مقعد واحد فى بهو الفندق ،
أرقب الباب ..
ولكنها لم تأت ..

وفى اليوم التالى انتظرتها أيضاً .. طول اليوم ..
ولم تأت ..

وفى المساء سلمنى موظف الفندق رسالة منها .. سطرين ..
« أسفة .. قد نلتقى مرة ثانية .. من يدرى .. إنى لا أياس أيداً ..
وشكراً .. لقد منحتنى صداقة ممتعة » .

وقال صديقى المصرى وهو يقرأ معى رسالتها :
- ربما كلفت بمهمة أخرى ..

ثم ضحك ضحكة كبيرة صارخة وقحة .. وهممت أن أصرخ
فيه مدافعاً عن هونكا .. ولكنى تذكرت أنه لم ير معى دموعها ..
الدموع المشبعة بكحل عينيها .. الدموع السوداء ..

أَلَانِيَا

سَلِكْ مِنْ ذَهَبٍ

وَسَلِكْ مِنْ نَحَاسٍ

برلين الغربية .. وكنت جالساً فى مقهى فندق كمبىنسكى ، على رصيف الشارع الكبير الذى يشق قلب المدينة .. والشمس دافئة ، كشمس الشتاء عندنا .. وأعصابى هادئة مرخية كأنها راقدة على حرير .. وعينائى معلقتان على وجوه الناس .. إن أجمل مخلوقات الله هو الإنسان .. أجمل من الزهور .. وأجمل من قطع السحاب المنثورة فى السماء .. وأجمل من القمر ، والنجوم والبحر والنهر .. إنى أحب الإنسان .. وعلى شفتى ابتسامة سعيدة تفتح قلبى لكل الناس ..

ومر من أمامى شاب أسمر متوسط الطول ، توقفت عيناه على وجهى برهة ثم تابع سيره .. ولكنه ما لبث أن عاد .. مر من أمامى مرة ثانية وتوقفت عيناه على وجهى برهة أطول .. ثم ابتعد .. وعاد مرة ثالثة .. وفى هذه المرة وقف أمامى وقال فى تردد وباللغة العربية :

- حضرتك فلان ..

وأجبت بالإيجاب ..

وقفزت الفرحة على وجهه .. فرحة خالصة حقيقية ليس فيها هذا الخيط الباهت الذى ترسمه الجاملات ، والذى يبدو كشرخ فى طبق صينى .. التقط يدى وأخذ يهزها فى حرارة ، وهو يصيح ..

.. من معقول .. مستحيل ، أنت هنا ، ولا أدرى .. و .. وانتقلت فرحته إلى وأحسست به فى لحظة واحدة كصديق قديم ، ودعوته إلى الجلوس على ماشدتى ، وأنا أتعرف على عينيه الذكيبتين النشيطتين وجبينه العالى ، وشعراته الخفيفة التى تطير على رأسه وتكاد تقع من فوقه ، وأناقته المرسومة المبالغ فيها .. وهو يتكلم .. لا يريد أن يكف عن الكلام .. ثم قال :

- إنك لا تدري كم ستفرح زوجتى عندما تراك .. إنها .. و .. وقاطعته :

- ألمانية ؟؟

وقال وفرحته على وجنتيه :

- طبعاً لا .. مصرية .. من أين ستعرفك لو كانت ألمانية .. اسمع .. ستتناول الغداء معنا .. عندى فى البيت .. سأتصل بها الآن فى التليفون لتعد لك طعاماً مصريةاً .. لا بد أن الملوخية والبامية أوحشتاك ..

قلت وأنا أحس به يقرب من قلبى أكثر ..

- اسمع أنت .. لا الملوخية ولا البامية أوحشتنى .. ثم إنى قررت أن أبقى فى هذا المقهى إلى أن تغيب الشمس .. وكنت قد قررت أن أبقى فيه وحدى .. قال وحماسه لا يفتر :

- إذن نلتقاك بعد أن تغيب الشمس .. إنك تقيم فى كمبىنسكى ..

ليس كذلك .. سأمر عليك فى السابعة .. أرجوك ، وافق ..

وقد تعودت عندما أكون فى أوروبا ، أن تمر على أيام أتمنى فيها ألا أرى أحداً من مواطنى .. فإن لقائى بأى مصرى ينزعنى من أوروبا كلها ، ويعيدنى إلى مصر .. إلى الشخصية المصرية ، والنكتة المصرية ، والمشاكل المصرية .. والموخية والبامية .. إنى

أتعمد في مثل هذه الأيام أن أشعر بأني ضائع .. تائه .. تائه عن شخصيتي .. تائه في بلد لا أعرفه ، وبين ناس لا أعرفهم .. تائه وأنا أتكلم لغة ليست لغتي .. وأكل طعاماً لم أعوده .. وتائه وأنا أتخط في عادات وتقاليد ليست مني .. ورغم ذلك وافقت .. وافقت على أن ألتقي في المساء بأحد مواطني ، وزوجته أيضاً ، وربما أكلت معهما الملوخية والبامية .. فقد كان - كما قلت - قد اقترب من قلبي ، وأحسست به صديقاً عزيزاً ..

وقال :

- سأتركك الآن في خلوتك .. هل تفكر في قصة جديدة ؟

قلت :

- لا .. إنني أستريح من قصة قديمة !!

قال وهو يهيم بالقيام من على مقعده :

- بالحق .. نسيت أن أقدم لك نفسي .. أنا طلعت مجددي ..

أعمل في التصدير والاستيراد .. مكتبي الرئيس في هامبورج .. ولي مكتب آخر هنا في برلين ..

قلت وأنا ابتسم له فرحاً به :

- تشرفنا ..

وعاد يهز يدي في حرارة ..

وابتعد .. وأنا أنظر خلفه بإعجاب .. إعجابي بكل مصري يعمل

في الخارج .. وينجح ..



وفي المساء جاء طلعت ومعه زوجته .. وقدمها إلي :

- درية .. زوجتي ..

سيدة شابة قد لا يزيد عمرها على الخامسة والعشرين ..

لا يبهرك جمالها .. ولكن تبهرك أناقتها ، ورشاقتها .. أناقة هادئة ،

ورشاقة محتشمة ليس فيها تصنع ولا افتعال .. ونظرت إلي ورموشها تهتز فوق عينيها ، هذه النظرة التي تحرجني كثيراً لأنها تضعني في مكان الأب ، وتشعرنني بمسئوليتي نحو كل من قرأ لي .. وصافحتني قائلة :

- إنني سعيدة بلقاك .. لقد قرأت كل ما كتبت ..

وإزداد حرجي ..

وخرجنا إلى سيارتهم المنتظرة عند الباب .. سيارة مرسيدس كبيرة « ٢٢٠ » آخر طراز .. وقال لي طلعت وهو يفتح لي باب المقعد الخلفي :

- سنذهب أولاً إلى البيت .. نتناول العشاء .. ثم نبحث عن

سهرة في الخارج ..

قلت :

- إنني مستسلم لك ..

والتفتت درية إلي ، بعد أن جلست بجانب زوجها في المقعد

الأمامي ، وبدأت تحدثني عن قصصي .. وأنا أشعر بالضيق كلما

حدثني أحد عن عملي .. أشعر كأن رباط عنقي يضيق حول

زوري .. ولكن حديث درية لم يكن مجرد إطراء ، ولا مجرد

اعتراض .. كان حديثاً واعياً جاداً ، أشبه بالدراسة ، ووجدت

نفسى أناقشها مناقشة أكبر من سنتها ، كأنني أناقش الدكتور

لويس عوض ، وربما استفدت من مناقشتها أكثر ..

إلى أن قطع حديثنا ووصلنا إلى البيت ..

بيت في عمارة كبيرة بحي أنيق من أحياء برلين .. وتبهرك

بمجرد دخولك إليه فخامة وهدوء الطراز الألماني .. كان كل قطعة

أثاث أسد مستأنس رابض أمامك .. والهدوء .. هدوء كثيف ،

لا تكاد تسمع فيه وقع أقدامك ويكاد صوتك يضع في صمته ..

وقطع الأثاث الألماني ، تعبر دائماً عن القوة .. قوة الجمال ..
قوة الخطوط التي رسمت بها .. وقوة قطع الخشب الذي صنعت
منه .. ولكن هذه القوة اكتسبت في بيت درية رقة شرقية ..
أضافت هنا صورة مصرية .. وهنا مفرشاً شغلته بيديها .. كأنها
تربت على ظهر الأسد الألماني ليصبح قطعاً أليفاً مدلاً مريحاً ..
وأخذتني إلى المكتبة .. أكثر من نصفها كتب عربية ، مجلدة
تجليداً أنيقاً رائعاً ، لا يحلم به مؤلفوها .. وبينها الكتب التي تضم
قصصى .. ونظرت إلى كتيبى نظرة سريعة خجولة كأنى أنظر إلى
بناتى وهن بقمصان النوم فى بيوت أزواجهن .

وقالت درية كأنها تريد أن تشعرنى بأهميتى عندها :

- عندى مجموعة أخرى فى هامبورج ..

وتتمت بوضع كلمات تعثر بينها لسانى .. ثم جلسنا فى مقاعد
عريضة وثيرة ، وعدنا نتحدث فى الأدب .. وأعترف أن معلومات
درية عن إنتاجنا الأدبى كانت أكثر بكثير من معلوماتى .. لقد
قرأت أكثر مما قرأت .. وربما فاتنى بعض حديثها وأنا أدير عيني
فى بيتها الفخم ، وأنا أتساءل : كيف استطاع طلعت أن يؤثت مثل
هذا البيت .. وفى أوروبا .. ولعل بيته فى هامبورج أفخم وأكبر ..
وعندما قمنا إلى مائدة العشاء .. قالت درية وابتسامتها المهذبة
تملاً شفيتها :

- لم أصنع لك أكلاً مصريةً كما نصحنى طلعت .. إننا نحب
الأكل المصرى لأنه يذكرنا بمصر .. أما أنت .. فلعلك تفضل
ما ينسبك مصر .. فأنت قادم منها ..

قلت :

- منذ متى لم تذهبا إلى مصر ؟

قالت وفى عينيها لهفة :

- آخر مرة منذ عامين .. لم نبق هناك سوى أسبوعين ..
وعدنا ..

وقال طلعت :

- عملى لا يسمح لى بالبقاء فى بلدى .. ولكن يوماً ما سأعود
وسأبقى إلى آخر حياتى ..

قلت :

- لا شك أنك ناجح .. بيتك يدل على نجاحك .. ولكن خبرنى ..
كيف بدأت .. وكيف نجحت بهذه السرعة .. خيل إلى أن عمرك
لا يزيد على الثلاثين ..

ورفع رأسه وقال كأنه يتباهى بعمره :

- اثنين وثلاثين ..

قلت كلفنى أحاول أن أشده من لسانه :

- كيف صنعت كل ذلك وأنت فى الثانية والثلاثين ..

قال وهو يضحك ضحكة عالية :

- تريد أن تسمع قصة ؟!

قلت كأنى أتحمّل دلالة على :

- نعم .. أريد أن أسمع قصة ..

والتفت إلى زوجته درية كأنه يستأذنها ، وخيل إلى لحظتها
أنها أقوى منه .. أقوى منه فى شخصيتها ، وفى صفاء نفسها ..

وابتسمت درية كأنها سمحت له بالحديث ..

وبدأ طلعت مجدى يروى قصته :

- « بدأت موظفاً فى وزارة الخارجية .. بعد أن نلت دبلوم كلية

التجارة قسم الحاسبة .. وعينت فى سفارة مصر بـ « »

وأذكر أن أول شىء فعلته هو أن طبعت بطاقة بالفرنسية تحمل

اسمى وتحتها كلمة « سفارة الجمهورية العربية » .. وهو تعبير

قد يعنى أنك سفير فى سفارة الجمهورية العربية ، أو وزير ، أو مستشار ، وقد يعنى أيضاً أنك ساع ، أو فراش فى سفارة الجمهورية العربية .. وأنا لم أعين طبعاً سفيراً ولا مستشاراً ، ولم أعين أيضاً فراشاً .. ولكنى عينت أميناً للمحفوظات .. والتفت إلى طلعت واستطرد قائلاً وقد برقت عيناه ، وبدأ صوته يحتد :

« هل تعرف ما هو وضع أمين المحفوظات فى أى سفارة .. أنا نفسى لم أكن أدري .. لقد فرحت بالوظيفة عندما عينت فيها .. كل ما عرفته عنها أنى ساقيم فى الخارج ، وساكون عضواً فى السفارة ، وسأتقاضى بدل اغتراب .. كنت أكاد أطير من الفرح .. وسافرت ، ودخلت السفارة متفوشاً كالديك .. مغروراً بطموحي .. ولكن .. بسرعة ، وفى خلال أيام ، ربما ساعات .. تعاون كل أعضاء السفارة الأجراء لينتفوا ريش الديك ، ويحطموا غرور الشاب الطموح .. ويضعونى فى مكانى .. مكان أمين المحفوظات .. وتحشرج صوت طلعت كأنه يهيم بالبكاء ، واستطرد قائلاً :

« إن مكان أمين المحفوظات قريب جداً من باب الخدم .. وهو لا يستطيع أن يكون خادماً .. الخدم يرفضون أن يكون منهم .. ولا يستطيع أيضاً أن يكون من بين رجال السفارة .. لأن رجال السفارة ينتمون إلى السلك الدبلوماسى ، أما هو فينتمى إلى السلك الإدارى .. والفرق بينهما كبير .. كبير .. إنه الفرق بين أمراء الهندوس وطائفة المنبوذين .. الفرق بين الشركاسة فى عهد المالك والفلاحين .. وكل شىء لهم .. كل الامتيازات .. السيارات والسجائر والخمور المعفاة من الضرائب .. والحفلات والاستقبالات .. والتحيات والتعظيمات .. وربما تهون كل هذه الامتيازات .. ولكن الذى لا يهون هو المعاملة ، إن رجال السلك

الدبلوماسى يعيشون فى عالم بعيد عن رجال السلك الإدارى .. سى .. فلم يكن من أعضاء السلك الإدارى فى السفارة غيرى .. كلهم ينظرون إلى من فوق .. من عل .. كأنهم فوق مئذنة وأنا فى الواطى .. لم يحاول أحد منهم أن يصادقنى ، أو يفتح لى قلبه .. لم يحاول أحد منهم أن يدعونى إلى بيته .. عيب .. لا يصح أن يبدو أحد رجال السلك الدبلوماسى وهو فى صحبة أمين المحفوظات .. آسف .. لقد دعتنى حرم السفير إلى الغداء مرة مع بقية الموظفين واستقبلتنى وهى تتبسم ابتسامة مرسومة كأنها تقول لى .. انظر إلى .. ألسنت سيده كريمة متواضعة إلى حد أن ادعوا أمين المحفوظات إلى بيتى .. وبجانبتها زوجها السفير يبتسم فى وقار كأنه قرر أن يكون زعيم الفلاحين أمثالى ..

وقاطعته درية وفى عينها نظرة عتاب يشوبها الغضب ، قائلة :

« طلعت .. لا تتفعل .. و ..

ولكنه قاطعها .. واستطرد فى حديثه كأنه لم يسمعها :

« حتى الساعة كانوا يعترفون بهذا التمييز العنصرى .. يتحدثون عن رجال السفارة بألقابهم .. سيادة السفير .. سيادة المستشار .. سيادة السكرتير الأول .. وإذا تحدثوا عنهم بأسمائهم منحوهم لقب « البهوية » رغم إلغاء الألقاب .. شوكت بيه .. فهمى بيه .. خليل بيه .. أما أنا فلا أحد يقول سيادة أمين المحفوظات .. وإذا أرادوا احترامى منحونى لقب « أستاذ » .. من تحت أستانتهم .. حتى أصغر موظفى السلك الدبلوماسى الذى لا يزيد على فى شهادته ، ولا فى مرتبه ، ولا فى عمره ، ولا فى أصله وفصله .. لا يزيد على إلا فى أنه يشتري السجائر أرخص مما اشتريها .. معفاة من الضرائب .. حتى هذا ، وضع فى القالب

العنصرى منذ اليوم الأول لوصوله ، وبدأ يتحدث إلى وشفتاه مقلوبتان ..

وابتلع طلعت ريقه وتنهّد كأنه يلتقط أنفاسه بعد أن جرى مشواراً طويلاً ، وعاد يقول وهو ينظر أمامه ، كأنه يشقّب بعينه الحائط .. لا يريد أن ينظر إلى ولا إلى زوجته :

- لقد استسلمت لهذا الوضع منذ أن اكتشفته .. انكشمت فى المكان الاجتماعى الضيق الذى خصص بى .. وكثير من أمماء المحفوظات يتوددون لرجال السلك السياسى حتى يستفيدوا من الامتيازات الممنوحة لهم .. ويأخذون منهم سجاثر رخيصة معفاة من الضرائب .. وخمورا .. و .. و .. وسيارات .. فكل عضو فى السلك السياسى يستطيع أن يشتري سيارتين بلا ضرائب وقد يمنح واحدة منهما لأمين المحفوظات إذا رضى عنه .. ولكنى لم أحاول أن أتودد لأحد .. كنت أشترى علبه السجاثر بخمسة شلنات بينما الوزير المفوض الذى يصل مرتبه إلى خمسة أضعاف مرتبى يشترىها بشلن واحد .. ورغم ذلك لم أحاول أن أتودد لأحد .. وعندما ألح على بعض السادة الدبلوماسيين أن يبيعوا لى ما يفيض منهم من السجاثر بالسعر المخفض ، ادعيت أنى أبطلت التدخين .. وادعيت أنى أقلعت عن الخمر .. و .. لا أريد أن يكون لأحد منهم جميل على .. لا أريد أكثر مما تقرره لى اللوائح والنظم .. وابتعدت .. أنزويت فى البيت الصغير الذى كنت أقيم فيه .. وتعلمت اللغة الألمانية ، وتعلمت الأسبانية أيضاً ، وأخذت دروساً لأتمكن من اللغة الفرنسية والانجليزية .. وقرأت .. قرأت كثيراً .. لم أكن أفعل شيئاً إلا القراءة .. ورغم ذلك لم أسلم من تشنيع السلك الذهبى على .. قالوا عنى إنى بخيل .. وإنى أكتنز

العملة الصعبة .. و .. و .. ولم أهتم بما يقولون ، كان كل همى ألا يؤخذ علىّ شىء فى عملى ..

ونظر طلعت إلى زوجته وابتسم ابتسامه خفتت من حدة نظراته ، وقال وقد خف الغضب والحماس فى صوته :

- إلى أن قابلت درية .. إن درية كانت ابنة السفير .. وزوجة السفير التى حدثتك عنها هى الآن حماتى ..

وأحنت درية رأسها ، واحمرت وجنتاها وتعثرت رموشها فى نظرتها ، كأنها ممثلة ناشئة على وشك أن تظهر على المسرح لأول مرة ..

واستطرد طلعت قائلاً :

- رأيتها لأول مرة عندما ذهبت إلى بيت السفير لأجرد محتوياته .. الأثاث .. والأطباق .. والشوك .. والملاعق ..

والكئوس ، فكل ما فى بيت السفير ملك للدولة .. ومرت بى درية وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، ووقفت تنظر إلى برهة ثم

هزت رأسها محيبة ، وانصرفت .. ولم أشعر أن فى نظرتها شيئاً من التعالى ، ولا فى هزة رأسها شيئاً من الافتعال .. أحسست

أنها لو كانت مرت بالوزير المفوض نفسه لنظرت له نفس النظرة وحيته نفس التحية .. وغادرت بيت السفير وصورة درية فى

خيالى .. تهتز أمام عيني سواء أغمضتهما أم ففتحتهما .. و .. وقاطعته درية قائلة وهى تحاول أن تضحك :

- طلعت .. لا تحاول أن تقلد الأدباء فى حديثك .. إنك حتى بعد أن تزوجتتى لا تصلح للادب ..

وضحك دلعت وقال :

- إنى لست فى حاجة لان أكون أديباً لأروى قصتنا .. إنها حوادث وليست خيالاً ..

ثم التفت إلى واستطرد :
 - « لم أكن طبعاً أطعم فى الزواج من درية .. ولا أحلم به ،
 كنت لا أزال منكشفاً فى مكاني الاجتماعى .. ولم تكن درية سوى
 طيف مر بى وتعلق به خيالى .. وقد رأيتها فى السفارة بعد ذلك
 عندما كانت تأتى لاصطحاب أبيها إلى البيت .. وتبادلنا نظرات
 عابرة .. ولم أفهم من نظرتها شيئاً ، ولم تفهم من نظرتى شيئاً ..
 إلى أن التقينا صدفة فى الحديقة .. كانت حديقة صغيرة قريبة من
 بيت السفير ، وكنت أذهب إليها كثيراً لأقرأ بعد انتهاء ساعات
 العمل .. وكنت يومها أقرأ كتاباً عن تاريخ الأزمات الاقتصادية ..
 وجاءت درية إلى الحديقة تحمل فى يدها قصة .. أعتقد أنها إحدى
 قصصك .. و ..

وعادت درية تقاطعه وهى تنظر إليه كأنها تقول له إنه ليس فى
 حاجة إلى نفاقى ، وقالت :

- كانت قصة لطف حسين ..

واستطرد طلعت وقد تضايق من مقاطعة درية :

- آسف .. كانت قصة لطف حسين ..

واسترد ابتسامته وأكمل :

- ولا أدري كيف اتصل الحديث بيننا .. ولكننا وجدنا أنفسنا
 نجلس أحدا بجانب الآخر على أريكة واحدة فى الحديقة .. وكانت
 تحدثنى عن القصص التى قرأتها .. وكنت أحاول أن أحدثها عن
 كتب الاقتصاد والحاسبة التى قرأتها ، حديثاً لم ترحب به درية
 كثيراً .. ولكننا بعد أن افترقنا ، جريت وقلبت الأرض حتى جمعت
 من المكتبات ومن أصدقائى مجموعة كبيرة من القصص .. قصص
 إنجليزية .. وقصص فرنسية .. وقصص ألمانية .. ولأول مرة
 أتودد إلى الملحق التافه بالسفارة ليقرضنى مجموعة القصص

العربية التى جاء بها من مصر .. وقرأت قصتين طويلتين فى ليلة
 واحدة .. وفى أسبوع واحد كنت قد قرأت أكثر مما قرأت درية فى
 خمس سنوات .. وعرفتك .. وعرفت غيرك من كتاب القصة .. وكنا
 نتقابل فى الحديقة .. درية وأنا .. وكنا ندعى فى الأيام الأولى أن
 لقاءنا صدفة .. ولكننا بعد أيام واجهنا الواقع وأصبحنا نتلقى على
 سواعد .. ثم .. ثم اعترفنا بالحب .. وحبنا يكبر على مدى الأيام ..
 ويكبر .. دون أن نناقش وضعى الاجتماعى بالسفارة .. دون أن
 نحس بالفارق الكبير بيننا .. إنها من سلك الذهب .. وأنا من سلك
 النحاس .. الصفيح .. ولكننا بلا تعمد منا أبقينا حبنا سراً بيننا ،
 رغم أننا لم نعد نكتفى باللقاء فى الحديقة .. أصبحنا نذهب إلى
 شاطئ النهر .. وإلى الملاهى ثم عندما لمحنا أحد أعضاء
 السفارة من بعيد ، أصبحنا نلتقى فى بيتى .. ثم وصل بنا الحب
 إلى القمة .. قمة الحب .. الزواج .. وعندما بدأنا نفكر فى الزواج
 صدمتنا الحقيقة التى حاولنا أن نهرب منها طويلاً .. سلك
 الذهب .. وسلك النحاس .. ولكنى سألت درية .. هل أنت موافقة
 على الزواج .. وقالت : موافقة .. قلت : بأى ثمن ؟ وأجابت .. بأى
 ثمن .. وساعتها أحسست أنى أقوى إنسان فى العالم .. أحسست
 أنه لو اجتمع الجن والإنس فلن يستطيعوا أن يمنعوا زواجى من
 درية .

وتنهذ طلعت ، وتقطب حاجباه ، وسكت برهة ، بينما وضعت

درية رأسها بين يديها ، وأسقطت عينيها فى طبق الطعام .. وأنا

أنظر إلى طلعت مبتسماً كأنى أشجعه على الاستطراد .

واستطرد قائلاً :

- « اتفقنا على أن تفتح درية أمها فى أمر زواجنا كخطوة

أولى ولكنها ما كادت تلمح لها بالموضوع .. حتى صرخت الأم

واعتبرت مجرد التفكير فى مثل هذا الموضوع إهانة .. فضيحة .. إنه أمين محفوظات .. ألم تجدى سوى أمين المحفوظات .. إن المستشار أعزب .. والسكرتير الأول أعزب .. وإذا كنت من غواة الفقر فامامك الملحق .. إلا أمين المحفوظات .

وبدأت الأم تراقب ابنتها .. ولكن درية استطاعت أن تتصل بى لتروى لى ما حدث .. ولم أفكر طويلا .. لم أتردد .. وفى اليوم التالى ذهبت إلى سيادة السفير فى مكتبه ، وبكل هدوء وريانة فاتحته فى أمر زواجى من ابنته .. ولكنه قبل أن أتم كلامى كان يصرخ فى وجهى بكل حدة : « انت بتهينى يا ولد .. امش اطلع بره .. » .. وحاولت أن أفهمه أنى شاب مثقف حاصل على دبلوم عال .. وأنى من عائلة طيبة .. وأن أخلاقى لا شبهة عليها .. ثم إن ابنته تحبى .. وأنى أعير عن رغبتها كما أعير عن رغبتى .. ولكنه لم يحاول أن يستمع لى .. عاد يصرخ وهو يضرب على المكتب بكلتا يديه « امش اطلع بره .. بره .. بره .. » .

والتمتع الأسى فى عينى طلعت ، وتقلص وجهه كأنه يكبت غيظاً كبيراً .. وقال :

- وخرجت .. خرجت من السفارة كلها .. لقد أصدر السفير أمراً بمنع دخولى من باب السفارة .. وأرسل برقية عاجلة يطلب إعادتى إلى القاهرة مدعياً أنى ارتكبت فضيحة أخلاقية .. وفى الوقت نفسه قرر أن يرسل ابنته إلى بلد آخر لتعيش مع عائلة أحد أصدقائه .. سفير آخر .

وانتشرت القصة بين كل أعضاء السفارة وأعضاء الجالية .. ونظرات الحقد والكراهية تلاحقنى .. خيل إلى أنهم سيتجمعون على ويرجموننى بالحجارة .. ولكنى ازددت عناداً .. وازدبت قوة .. ودرية أيضاً .. وأنت تعلم أن الحب دائماً أقوى من أنى

يقاوم .. إنه كالماء فى رفته وحلاوته ، وفى قوته عندما يفيض ويكتسح كل شىء .. وقد هربت درية من بيت السفير .. ففرت من الشباك بقميص النوم .. وكنت قد اشتريت سيارة صغيرة .. اشتريتها بلا إعفاءات من الضرائب .. بلا امتيازات .. وتركت استقالتى من وزارة الخارجية مع أحد السعاة .. وأخذت درية فى الليل ، وسافرنا إلى ألمانيا .. وتزوجنا .. زواجاً مدنياً ..

ورفعت درية عينها إلى كأنها تحاول أن تقرأ وقع القصة علىي .. ونظر إلى طلعت ، وعندما لم أعلق بشىء استطرد فى حدة : - لم تسجل زواجنا فى سفارتنا .. لا لانى كنت خائفاً ، ولكن لانى فى تلك الأيام كنت لا أريد من أى سفارة أى شىء .. وقد أرسلنا برقية إلى والد درية تبلغه بخبر زواجنا ، ونطمئنه على صحتها وسلامتها .. ولكنه كان فى تلك الاثناء يحاول اتهامى بالاختلاس ، حتى يصبح هناك مبرر للقبض على .. ثم نصحوه فى السفارة بأن يسكت حتى لا تكبر الفضيحة . وبعد شهور نقل إلى القاهرة ، وكان قد وصل إلى سن المعاش ..

ونظرت إلى درية .. وخيل إلى أن دموعاً فى عينها .. واستطرد طلعت وقد بدأت أنفاسه تهدأ :

- « لقد اشتغلت عاملاً بأحد المصانع بمجرد وصولى إلى ألمانيا .. وسكنا فى غرفة فقيرة فى حى العمال .. وكانت درية تطبخ وتغسل وتكنس .. كانت منذ اليوم الأول خير زوجة ، وهى التى عاشت فى القصص طول حياتها ، ولم تكن قد تجاوزت التاسعة عشرة .. ولم أكن أستطيع أن أبقى عاملاً فقيراً ، كان فى صدرى سياط تدفعنى إلى النجاح لأثبت لأهل درية ، ولرجال السلك الذهبى كلهم ، أن من حقى أن أتزوج منهم .. أنى خير من أحسن واحد فيهم حتى لو كان أصلى أمين محفوظات .. وقد

تركت المصنع بعد شهرين ، واشتغلت كاتب حسابات فى شركة ..
لم أكن أكتب الحسابات ، ولكنى كنت أتعلم .. كنت أدرس
السوق .. وأقلعت عن قراءة القصص - تركتها كلها لدرية - وبدأت
أقرأ وأدرس البورصة .. واستطعت أن أحقق بعض صفقات ..
صفقات صغيرة .. ولكنها مكنتنى من أن أدس نفسى بين رجال
الأعمال وأن أزداد معرفة بالسوق العالمى .. ثم تركت الشركة التى
أعمل فيها ، واشتغلت فى مكتب تصدير واستيراد يملكه رجل
لبنانى .. وبعد عام واحد كنت شريكه وبعد عامين فتحت مكتباً
لنفسى .. وأصبح المكتب شركة .. شركة كبيرة لها فروع فى عشر
دول أوروبية ..

ورفع طلعت كأس النبيذ ، ورشف نصفه فى جرعة واحدة ، ثم
مسح شفطيه بالفوطة .. واستراح كأنه انتهى من قصته .. ولكنه
ما لبث أن قهقه عالياً ، وقال :

- إنى أكسب الآن فى أسبوع واحد ضعف مرتب أى سفير فى
عام ، بما فيه بدل التمثيل وفروق الامتيازات .

ثم ألقى الفوطة من يده وأزاح كرسيه إلى الورا ، وهم
بالقيام .. ونظرت إليه درية قائلة فى عجل كأنها تستمله :

- إنك لم تذكر أننا تزوجنا زوجاً شرعياً ..

وقال طلعت وهو يبتسم فى ازدراء كأنه لم ينس شيئاً مهماً :

- كان ذلك بعد خمس سنوات من زواجنا .. وبعد ست سنوات
من لقائنا .. وكان أهل درية قد صفحوا عنها وعنى بعد أن حققت
كل هذا النجاح ، وجمعت كل هذه الثروة .. وسافرنا إلى القاهرة ..
وعقدنا هناك زواجنا مرة ثانية .. زوجاً شرعياً .. فى البيت ،
لا فى سفارة .. إنى ما زلت لا أريد أى شىء من أية سفارة ..
وكان زواجنا الشرعى فى السر أيضاً ..

وقالت درية :

- ولكنى ليست الثوب الأبيض .. ثوب العروس .

وقال طلعت وهو يضحك :

- لبسته لى وحدى ..

وتنهدت درية ، ثم قامت من مقعدها وقالت فى أناقة سيدة

السلك الدبلوماسى :

- هل نشرب القهوة بجانب المدفأة ؟



وهمست درية لى ونحن نتناول القهوة :

- هل تعتقد أننا أخطأنا ؟

قلت :

- لا ..

قالت :

- إنها كالقصص التى تكتبها .. ربما استمددت الشجاعة يومها

من بطلات قصصك ..

ولم أجبها .. سرحت .. ولم أكن سارحاً فى القصة التى

سمعتها .. ورغم أنها كانت المرة الأولى التى أسمع فيها عن

العلاقة بين السلك الدبلوماسى والسلك الإدارى ، إلا أن هذا أيضاً

لم يكن مثيراً لى .. فقد كنت أنظر إلى طلعت نظرة جديدة .. كنت

أنظر إلى البدلة التى يرتديها ، إنها كبدلة السفراء .. الجاكتة

السوداء ، والبنطلون المخطط « الفانتازى » .. ورباط عنق رمادى

مشبوك فيه دبوس من الماس .. ثم هذه الخادمة التى ترتدى ثوباً

أسود و « مريلة » بيضاء وعلى رأسها تاج أبيض من القماش

المنشى .. إنها كالخادما اللاتى يستقبلننى عندما يدعونى سفير

إلى العشاء .. والخادم النبوى الذى كان يقدم لنا الطعام مرتدياً

إنجلتوا

فتحة

في لندن ..

بدلة سوداء رسمية .. ثم السيارة المرسيديس .. إن كل سفرائنا يشتررون سيارات مرسيديس .. وقد كان طلعت يستطيع أن يشتري كاديلاك أو بويك ، خصوصاً أنه لن يبيعهها في القاهرة كما يفعل السفراء .. ولكنه اشترى مرسيديس .. كالسفراء !

إن طلعت .. رغم كل شيء .. ورغم كل هذا النجاح الذي حققه .. لا يزال أمين المحفوظات الذي يتطلع ليكون سفيراً .. إنه لا يزال يعاني « عقدة السفير » .

والتفت إلى درية ...

إنها قوية .. محترمة .. رائعة .. ولكنى ترددت كثيراً قبل أن أحكم بأنها سعيدة ..

واقترب الخادم النوبي الأنيق ، وأحنى رأسه أمام طلعت وأشعل له سيجاراً طويلاً ، وقال :

- إكسلانس .. هل ستحتاج إلى السيارة الليلية ؟

و « إكسلانس » هو اللقب الذي يخاطب به السفراء !!!

لندن عام ١٩٤٦ .. بعد انتهاء الحرب مباشرة .. وكنت فى السابعة والعشرين من عمرى .. وكانت المرة الأولى التى أسافر فيها إلى أوروبا موفداً فى بعثة دراسية قصيرة لزيارة دور الصحف الانجليزية والفرنسية .. ولم أكن متلهفاً إلى زيارة دور الصحف بقدر ما كنت متلهفاً إلى زيارة أوروبا نفسها .. كان خيالى مزدحماً بعشرات الكتب والقصص التى قرأتها عن أوروبا ، وكنت أريد أن أرى بعينى وأمس بيدي هذا الخيال .. أريد أن أعيش حيث عاش طه حسين وتوفيق الحكيم والتابعى والصاوى ، وأوسكار وإيلدا ، وسمرست موم ، وبرناردشو ، وجى موباسان .. و .. و .. وكل الذين كتبوا قبلى .. وكانت لندن هى أول مدينة أهبط إليها .. خائفاً ، مرتبكاً ، ملهوفاً .. كأتى مراهق فى طريقه إلى أول موعد غرام .. وصعقت عندما وقعت عينائى على لندن .. إنها خراب ..

أكثر من نصف بيوتها مهدم .. والدكاكين الكثيرة التى اشتهرت بها لندن ، فارغة ، بعضها يعرض ثوباً ، أو قطعة من القماش ، أو أدوات منزلية أو آلات ، ولكن كلها مكتوب عليها بالخط العريض « للتصدير » ..

كل شىء كانت تصنعه بريطانيا فى ذلك الوقت كان للتصدير ،

حتى تعوض بثمن بيعه للخارج نفقات الحرب .. حتى تسترد ثمن النصر .. ولم تكن الحكومة تخفى ذلك عن الناس .. إنها تعرض كل المنتجات فى نوافذ الدكاكين وتكتب عليها بالخط العريض « For Export » ..

كل شىء جميل للتصدير .. كل شىء جيد للتصدير .. والشعب مفروض عليه التقشف .. كل ما يحتاجه الناس بالبطاقات .. الأكل ، واللبس ، حتى معجون الاسنان وصابون الحلاقة .. بالبطاقة .. والناس تحتمل .. وتتذمر .. ولكنه ليس مجرد تذمر .. إن الحرب فعلت فى أعصاب الناس أكثر مما فعلت فى بيوت لندن .. هدمت نفوس الناس .. إن الناس فى لندن كما لم تصورهم أبداً .. إنهم مجانين .. ناس يملؤهم الحقد والغیظ والعنف والضیاع .. والرجل الذى قضى خمس سنوات يحمل بندقيته ويقتل أعداءه ، عاد إلى بلده وهو لا يزال يحمل بندقيته ويريد أن يقتل ، وعندما لم يضعوا أمامه عدواً يقتله ، تصور أن كل الناس أعداؤه .. والبنات والنساء اللاتى قضين سنوات الحرب فى خوف وفرع وانحلال .. لا يزلن يعشن فى هذا الخوف والفرع والانحلال .. لا تقاليد .. لا مبادئ .. لا حدود .. لا عائلات .. والصحف تصدر كل صباح حافلة بأخبار جرائم شاذة غريبة .. جرائم ليس لها دافع ، ولا منطق إلا الجنون ..

وفى طريقى من المطار إلى الفندق وجدت نفسى أدخل فى مشادة عنيفة مع سائق التاكسى .. إنه يريد أن يسرقنى .. يسرقنى بلا ذوق وبلا شطارة ، إنما يريد أن يسرقنى فى وقاحة .. وقد تعودت أن أستسلم لمن يسرقنى بذوق .. بلباقة .. ولكنى وجدت نفسى أستسلم لهذه السرقة الوقحة .. ثم بعد عدة دقائق وجدت نفسى فى مشادة أخرى مع بواب الفندق .. إنه يريد

أن يسرقنى هو الآخر .. و .. وفى خلال أيام وجدت نفسى أعيش فى خوف من لندن .. كل تصرفاتى مبعثها الخوف .. أسير فى الشارع محترسا .. وأتعامل مع الناس فى حذر .. وعصب الخوف فى رأسى ، متيقظ دائما ، متوتر دائما .. ثم وجدت نفسى أنسحب من لندن كلها .. وأختبئ منها .. أختبئ فى النادى المصرى هناك .. كنت أنتهى من الساعات التى أقضيها فى دور الصحف ، ثم أجزى إلى النادى المصرى .. أتناول غدائى فى النادى .. وعشائى فى النادى .. وأقضى أمسياتى بين مجموعة قليلة العدد من الأصدقاء المصريين الذين كانوا فى لندن أيامها ، كائى أحتفى بهم من الشعب الانجليزى الذى لم يكن قد صدق بعد أن الحرب قد انتهت ..



وكنا جالسين فى بهو النادى المصرى بعضنا يلعب الطاولة ، وبعضنا يتناقش فى السياسة .. وأغلق صديقى عبد الكريم صندوق الطاولة فجأة ، ثم وقف على قدميه صائحا :

– لنذهب إلى فتحية ..

وانفتحت الأفواه كلها فى ضحكات صاحبة .. ونشط الجميع للخروج من النادى ، وقد التمع الفرع فى عيونهم .. فرح ضاح غنيف ودرت بعينى بين الأفواه المفتوحة أحاول أن أسأل عن فتحية .. من هى ؟! ولكن لا أحد يجيبنى ، كأن فتحية ظاهرة بديهية لا تستحق السؤال .. كأنها تشرشل ، أو هتلر ، أو موسيلينى .. لا أحد يجهلها .. وضاع تساؤلى وسط الضحكات الصاخبة والتعليقات الساخرة التى أثارها فتحية ..

وخرجوا من النادى وأنا معهم .. وسرنا فى شارع « كيرزون ستريت » الذى تقع فيه دار السفارة ، ثم انحرفنا إلى شارع آخر

فى حى « شبرد ماركت » .. واقترب صديقى عبد الكريم منى ، وأخذنى من ذراعى ، وهمس فى أذنى :

– عندما تقابل فتحية قل لها إنك قابلت حسن فى القاهرة وإنه حدك عنها ..

قلت فى دهشة :

– حسن من ؟ ..

قال :

– حسن صدقى ..

قلت :

– ولكنى لا أعرف حسن صدقى ..

قال ضاحكا ، وهو يضغط على ذراعى كأنه يوصينى بالآكون غيبيا :

– لا يهم .. إننا كلنا نعيش هنا ببركة حسن صدقى .. الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه ..

وكنا قد وصلنا إلى « بار » أو « حانة » على الطراز الانجليزى العتيق .. لها بابان ككل حانات إنجلترا .. وكلا البابين يؤدى إلى نفس البهو الواسع الذى تمتد فى صدره مائدة البار العالية ، ومن خلفها حائط من المرايا ، معلق عليه – فوق أرفف – زجاجات الخمر .. ورغم ذلك يجب أن تختار الباب الذى تدخل منه .. فإنك لو دخلت من الباب الذى على اليمين ، تدفع ضعف ثمن المشروب الذى تدفعه لو دخلت من الباب الذى على اليسار .. رغم أنك ستشرب نفس نوع الخمر ، ومن نفس البرميل أو الزجاج ، وستجلس على نفس المقاعد ، وتخدمك نفس الجرسونة ، ولكنها تقاليد الارستقراطية الانجليزية ، فالارستقراطية الانجليزية لم تعد طبقة صاحبة امتيازات مادية ، ولكنها طبقة صاحبة امتيازات

مظهرية أو معنوية .. إنها مجرد إحساس .. احساس بأنك
ارستقراطى .. والارستقراطى الانجليزى مستعد لان يدفع ضعف
ثمان شوب البيرة ، ليحتفظ بإحساسه كارستقراطى لمجرد أنه
يخطو من باب مخصص للارستقراطيين ..

ودخلنا من الباب الذى على اليسار .. باب العمال .. واستقبلتنا
البنات الجرسونات بترحيب كبير .. إنهن يعرفن كل أصدقائى
المصريين بالاسم .. وسعين معنا حتى وجدنا لنا بصعوبة مائدة
صغيرة وسط الزحام الكبير الذى يملأ الحانة .. وجلست أرقب كل
من حولى من خلال أبخرة الدخان والخمر التى تحرق عيني .. إن
العمال وباعة الحوانيت يتزاحمون فى الجانب الأيسر من الحانة ..
وفى الجانب الأيمن يجتمع الأرسقراطيون ، ولا يفصل بين
الجانبين شىء .. لا سور .. ولا مائدة .. ولا لوحة .. إنه مجرد
انجذاب كل فريق بعضه إلى بعض .. ولا فارق بين الاثنين ..
لا فى الوجوه ، ولا فى الثياب .. ولا فى أسلوب الإقبال على
شرب الخمر .. ولكنهم فى جانب العمال ، يتحدثون بلهجة أقرب
إلى « الكوكنى » .. أى اللهجة الشعبية التى لا أفهم منها شيئاً ..
وهناك يتحدثون بلغة أقرب إلى الانجليزية السليمة أستطيع أن
أفهمها .. وخيل إلى أن الأنوف فى الجانب الذى أجلس فيه
مستديرة ، وفى الجانب الآخر مدبية .. لا أدري لماذا .. ولكن هذا
هو ما خيل إلى .. وكل فريق من الجانبين يحترم الآخر ويعطيه
كل حقه .. الفريق الارستقراطى لا يعترض على صراخ العمال
وهم يرفعون عقيرتهم السكرى بأغاني بعضها بذيء .. والعمال
لا يعترضون على قنزحة الارستقراطيين .. والحانة كبيرة .. إنها
أكبر مما كنت أتصور .. ولعلها من أفخم حانات لندن .. وقد كان
تشرشل يتردد عليها قبل أن يصبح رئيساً للوزراء .. وويندل

ولكى الذى طاف العالم أثناء الحرب مندوباً عن الرئيس
روزفلت ، وكتب كتاب « عالم واحد » ، جاء إلى هذه الحانة وكتب
عنها فى كتابه .. و .. وأنا لا أكف عن التلفت حولى .. خيل إلى
أنى ألتقى بالشعب الانجليزى لأول مرة .. وأن المكان الوحيد الذى
تستطيع أن ترى فيه الشعب الانجليزى هو « البوب » أى البار
الانجليزى ..

ورفع صديقى عبد الكريم ذراعاه إلى أعلى ، ولوح بيده لسيدة
مقبلة علينا ، وهو يصيح :
- فتحية ..

وشهقت عينائى من الدهشة ..

إن فتحية سيدة انجليزية تكاد تكون فى الخمسين من عمرها ..
سمينة .. سمينة جداً .. وذراعاها مكتنزان بشكل غريب ، كان كل
جزء منها ماسورة مركبة فى الأخرى بقلوظ .. ولونها أبيض
باهت مشرب بالحمرة ، كلون لحم الخنزير المسلوق .. وشعرها
مصبوغ باللون الذهبى الفاقع .. ووجهها ملغمط بأصابع
صارخة .. يكاد يكون وجه بلياتشو ..

ووقف الأصدقاء يستقبلونها ، وكل منهم يخفى خلف أسنانه
ابتسامة ساخرة .. ونظرات « الحداقة المصرية » تلمع فى
عيونهم .. وكل منهم يقول كلمة .. وانحنى عبد الكريم وقبل
يدها .. ثم رفع رأسه قائلاً :

- عندنا اليوم أخبار سارة ..

ثم التفت إلى وقدمنى لها قائلاً :

- لقد جاء من مصر أمس ..

ونظرت إلى فتحية طويلاً ، ولحت فى عينيها لهفة عنيفة .. ثم
استدارت إلى أحد الجالسين على المائدة المجاورة ، ووضعت يدها
على المقعد الذى يجلس عليه ، وقالت فى حزم :

- أنت .. أعطنى مقعدك !
والتفت إليها الرجل الانجليزى المخور ، وقال وهو يترك لها
المقعد :

- بكل سرور .. فتحة !
إن الانجليز أيضاً ينادونها باسم فتحة ..
وجلست معنا قائلة :
- ازيكم يا أولاد ..

ثم ركزت عينها مرة أخرى على وجهى وفى عينها هذه اللهفة
العنيفة .. ولم تتكلم .. ظلت عيناها على وجهى برهة ، ثم حولت
عينها إلى إحدى البنات الجرسونات .. وتغيرت النظرة فى عينها
.. أصبحت نظرة امرأة مسيطرة .. وجاءت البنت هارعة ووقفت
أمامها كأنها ترتعش .. فمالت فتحة على أذنها وهمست ببضع
كلمات ، والتمعت الفرحة فى عيني أصدقائى . لقد فهموا أنها
أمرت بدعوتهم إلى شراب على حسابها .. وتغامزوا فيما بينهم
كان خطتهم نجحت .. وعادت فتحة تنظر إلى وقد عادت إليها هذه
النظرة الملهوفة .. واستطعت أن أركز عيني على وجهها .. وخيل
إلى أن تحت هذه الأصابع الصارخة ، وجهاً طيباً .. سانجاً ..
وأحسست بهذه الطيبة والسذاجة كأنها أعمق من ملامح السيطرة
الأمرة التى خاطبت بها فتاة الحانة ..

والتفت فتحة إلى الصديق الذى يجلس بجانبها وقالت :

- ماهر .. هل انتهت مشاكلك مع صاحبة البنسيون !

وقال ماهر :

- تقريباً .. ولكنى أتمنى لو أنك حادثتها مرة أخرى فى

التليفون ..

وقالت وهى تلوى شفيتها :

- إنها امرأة قذرة .. ولكن لا تخف .. ستخضع فى النهاية !

ثم التفتت إلى صديق آخر قائلة :

- سيد .. هل أعطاك البوليس بطاقة التموين ..

وقال سيد :

- لا .. ليس بعد ..

وقالت فتحة فى حزم :

- ساتصل بالضابط غدا ..

ثم عادت تلتفت إلى ، وتتنظر فى وجهى .. إنى أعلم أنها تنتظر

منى أن أقول شيئاً .. ولكنى لا أدرى ماذا أقول ..

وأخيراً سألتنى فى صوت خجول خافت ، ورموشها ترف فوق

عينها كأنها فتاة مراهقة صغيرة :

- ماهى أخبار حسن ؟

سألتنى كأن المفروض فى كل مصرى أن يعرف حسن ،

أو كان حسن شخصية وحيدة فى مصر .. كأبى الهول .. أو توت

عنتخ آمون ..

وترددت برهة ، ولكن عبد الكريم لكزنى فى جنبى ، فانطلقت

قائلاً :

- إنه بخير .. وقد حدثنى عنك كثيراً ..

وخيل لى أن الصبغة الحمراء التى تكسو وجنتى فتحة ، قد

ازدادت احمراراً ، وقالت وهى تضحك ضحكة صغيرة :

- إن حسن إنسان عاطفى .. يبالغ كثيراً فى كلامه ..

ثم رفعت إلى عينها قائلة كأنها تتوسل إلى أن أبلغها بنياً

سار :

- ألا تعلم متى سيعود إلى لندن ..

وعدت أتردد .. أشفقت عليها من الكذب .. ولكن عبد الكريم عاد

يلكزنى فى جنبى .. وعيون الأصدقاء تحاصرنى كأنها تهددتى ..
فقلت :

- الذى أعلمه أنه يستعد للسفر .. ربما يصل فى خلال
أسبوعين أو ثلاثة ..

وتهلل وجه فتحية وصاحت :

- صحيح !؟

قلت فى أسى :

- صحيح ..

وجاءت فتاة الحانة تحمل زجاجة « جين » وبضع كئوس ..
وفرح الأصدقاء بالزجاجة .. لقد كان « الجين » أيامها لا يباع إلا
فى السوق السوداء .. وانشغلت فتحية بفتح الزجاجة وملء
الكئوس .. والتفت إلى الأصدقاء قائلاً باللغة العربية :

- والله حرام عليكم ..

وعاد عبد الكريم يلكزنى قائلاً :

- اسكت .. إنها تعرف كثيراً من الكلمات العربية .. بل إنها

حفظت الفاتحة وقل هو الله أحد ..

ومد الصديق كمال عنقه وقال لفتحية :

- فتحية .. صدقيني .. دعيك من حسن ، وأحبيني أنا ..

ونظرت إليه فتحية فى ازدراء ، ولوت شفيتها ، وقالت فى

تأفف :

- أنت سخيف ..

ثم التفتت إلى قائلة وهى تبسم لى ابتسامة كبيرة :

- غدا الأحد .. إنى أدعوك عندى لقضاء السهرة ..

ثم طافت بعينيها على بقية الأصدقاء وقالت :

- كلكم مدعوون .. أنتم تعرفون البيت طبعاً ..

وقامت وتركتنا مع زجاجة « الجين » .. وخيل إلى وهى تسير
بين الموائد بجسدها السمين النشط أنها ملكة تشرف على
رعاياها .. قوية .. أمرة .. مسيطرة ..



إن فتحية هى صاحبة الحانة ..

وكان حسن طالباً فى جامعة لندن يدرس الأدب الانجليزى قبل
الحرب وعرف فتحية عندما بدأ يتردد على حانيتها ليسكر .. إنه
يشرب كثيراً قبل أن يسكر .. وقد اكتشف أن أرخص وسيلة
لشرب الخمر ، هى أن تحبه صاحبة الحانة .. واستطاع بذلكه
الحاد .. ووسامته .. وشبابه .. وفحولته .. أن يقنعه بحبه .. وقد
أحبته فعلاً .. أحبته إلى حد أن خضعت لجميع نزواته .. ولأنها
تحبه فتحت حانيتها ، وبيتها ، وقلوبها لكل أصدقائه المصريين ..
وربما لم يحبها حسن .. ولكنه لم يعد يستطيع الاستغناء عنها ..
لقد تسللت فى حياته إلى حد أن أصبحت كل دقيقة من عمره
معتمدة عليها .. وهو الذى أسماها فتحية .. وفرحت هى بهذا
الاسم .. وأصرت على أن يناديها به كل الناس .. حتى اشتهرت
به .. تشرشل نفسه كان يناديها باسم فتحية .. وتعلمت من حسن
كثيراً من اللغة العربية ، وتعلمت الفاتحة وسورة من القرآن ،
وكانت مستعدة أن تشهر إسلامها لو طلب منها حسن أن تسلم ..
وكانت مستعدة أن تبيع حياتها وتسافر معه إلى مصر ، لو طلب
منها حسن .. كانت مستعدة لكل شىء .. وتحملت منه كل شىء ،
حتى مغامراته الغرامية .. كانت كل ما تحرص عليه فى هذه
المغامرات ألا يذهب حسن مع الفتاة الواحدة أكثر من مرة ..
لو خرج معها أكثر من مرة ، اختفت البنت .. اختفت من الدنيا !!
وقامت الحرب .. وحاول حسن أن يعود إلى مصر مع بقية

المصريين الذين عادوا عقب إعلان الحرب .. ولكنه لم يعد .. ربما عطلت فتحية إجراءات سفره .. من يدري .. إنها صاحبة نفوذ كبير .. وبقي حسن فى لندن ، وانقطعت موارده المالية التى تأتيه من مصر ، فانتقل إلى بيت فتحية .. وعاش فيه .. وتولت فتحية جميع أمره .. بل تولت أمر كثير من المصريين أصدقاء حسن الذين بقوا بعد الحرب .. وكانت هذه هى أسعد أيام فتحية .. لم تستطع الغارات والقنابل والموت الذى كان يجثم على لندن أن يقلل من سعادتها فى تلك الأيام .. وحسن هو السيد .. هو الأمر الناهى .. وهى تخضع له كزوجة شرقية ضعيفة مستكينه ، كل ما طلبته منه فى تلك الأيام ألا يتردد على حانتها .. كانت تعطيه نقوداً ليشرى فى الحانات الأخرى .. ولكن ليس حانتها .. ربما لأنها لم تكن تريده أن يراها وهى متمالكة شخصيتها الأمرة المسيطرة .. وربما لأنها خافت أن يسيطر حسن على الحانة كما سيطر عليها .. ولم يكن حسن يهमे أن يسيطر على الحانة .. كان كل ما يهमे أن يسكر فى أى حانة ..

ثم .. استطاع حسن فى يوم من الأيام أن يسافر إلى مصر .. عمل فى إحدى مراكب نقل الجنود المتجهة إلى القنال .. وترك خطاباً رقيقاً لفتحية ، يقول لها فيه إنه لا يستطيع أن يعيش بعيداً عن بلده وأهله فى أيام الخطر ..

وبكت فتحية كثيراً .. بكت أكثر مما بكت على كل أهلها وأصدقائها الذين قتلوا فى الحرب .. وأخذت خطابه تقرأه على كل زبائناتها .. وهى تبكى ..

ومن يومها وهى تنتظر عودته ..

ومن يومها وهى تجرى وراء كل مصرى يصل إلى لندن لتسأله : متى يعود حسن .. والمصريون يحبونها .. لأنها تفتح لهم حانتها ، وبيتها ، وقلبها .. من أجل عيون حسن ..



وانصرفنا ليلتها فى الساعة العاشرة والنصف - وهو موعد إغلاق جميع الحانات فى انجلترا - بعد أن سمعت قصة فتحية وحسن ..

وقبل أن أخرج من الحانة ، هرعت ورائى فتحية وناولتنى كيساً صغيراً قائلة :

- خذ .. هذا لك ..

قلت :

- ما هذا ؟

قالت :

- إنك لا تستطيع أن تعيش فى لندن جوعان .. إن وجهك أصفر ..

وكان فى الكيس خمس بيضات .. والبيض أيامها كان بالبطاقة .. بيضة واحدة فى الأسبوع للفرد .. وخمس بيضات تساوى ثروة فى السوق السوداء ..

وأخذت البيضات الخمس ، وأعطيتها لخادمة الفندق لتسلقها لى .. وسلقتها وأعادتها لى ثلاثاً فقط ..



ولما كانت الليلة التالية ، اجتمعنا فى النادي المصرى ، ثم توجهنا إلى بيت فتحية .. بيت فى حى سوهو ، يقف مستنداً على « سقالات » خشبية بين عشرات البيوت المهدمة من أثر الغارات الجوية ..

وشقة فتحة صغيرة .. وكان ينتظرنا فيها أربع بنات شبابت ، اثنتان منهن من بنات الحانة .. ومائدة زاخرة بكل الممنوعات .. كل ما في السوق السوداء الانجليزي من أصناف الطعام والخمر .. حتى النبيذ والشمبانيا كانا هناك ..

وجلست فتحة بجانبى طول الليل .. وطول الليل تتحدث عن حسن . تحدثت عنه أكثر مما سألتني عنه .. كأنها كانت تحاول أن تتباهى أمامي بأنها تعرفه أكثر منى .. وكانت تضع فى حديثها كثيراً من الكلمات العربية كأنها تتباهى على أيضا باللغة العربية .. ثم قامت فجأة ، وفتحت درجاً صغيراً ، وأخرجت منه علبة من الصفيح ثم عادت بها .. إن بها قطعة من الحشيش .. ودون أن تسألني بدأت تحشو سيجارة .. تحشوها بطريقة فنية كأنها قضت عمرها كله تحشو سجائر الحشيش ..

ومدت يدها بالسيجارة إلى ، وقلت :

— شكراً .. لا أدخنه !

ونظرت إلى فى دهشة كبيرة ، وقالت :

— لا تدخن الحشيش ؟

قلت وأنا ابتسم لها حتى أهدىء من روعها :

— لا ..

قالت :

— ولكن حسن يدخنه ..

قالتها كأن ما يفعله حسن يجب أن يفعله جميع المصريين ..

وقلت :

— ربما لأنى أختلف عن حسن قليلاً ..

وهزت كتفها بلا مبالاة ، وأشعلت السيجارة لنفسها ، وبدأت

تدخنها فى هدوء .. ومزاج ..

ماذا فعلت بفتحة يا حسن !!

وسألتنى والدخان الأزرق يلفنا :

— أين تقيم ؟

قلت متنهداً :

— أقمت فى ثلاثة فنادق خلال أسبوع .. كل فندق يعطينى

يومين لا غير ، ثم يطردنى .. والآن فى فندق « رامبرانت » .

قالت وهى جالسة تدخن سيجارتها كأنها معلمة فى سوق

الفرخ تدخن الشيشة :

— سنتنقل غدا إلى بنسيون أعرفه .. وترتاح فيه .. دعك من

الفنادق .. إنهم لصوص .. إليزا ستمر عليك غداً وتصحبك إلى

البنسيون ..

ثم نادته إليزا .. إحدى البنات المدعوات .. وألقت إليها

بتعليماتها ..

وعلى الجرافون أسطوانة صاخبة .. وأصدقائى يرقصون مع

البنات .. ويصرخون .. وكلما نقصت زجاجة من الزجاجات التى

على المائدة .. ارتفع صوت الصراخ أكثر .. واشتد الرقص .. ثم

أحاطوا بى فى دائرة وأخذوا يدورون حولى وهم يغنون الأغنية

الانجليزية المعروفة : « إنه صديق طيب مرح » ..

كانت ليلة صاخبة ..



وجاءت « إليزا » فى اليوم التالى ، وحملتني وحملت حقيبتى

إلى البنسيون الذى اختارته لى فتحة .. بنسيون فى حى راق

قريب من هايد بارك .. والإيجار رخيص إلى حد أنى لم أصدق أن

هذا هو الإيجار الذى يدفعه كل السكان .

وأصبحت كلما احتجت إلى شىء ذهبت إلى فتحة .. بل إنى

تعبت مرة في الحصول على البطاقة لحضور إحدى جلسات مجلس العموم البريطاني .. وقلت لفتحية .. فابتسمت لى ابتسامه كبيرة ، وقالت :

- ولا يهيك ..

ثم مدت رأسها إلى نهاية الحانة حيث يجتمع فريق الارستقراطيين ، وصاحت :

- جورج ..

والنفت إليها رجل لا عرفه .. وذهبت إليه وقالت له كلمتين .. ثم عادت إلى قائلة :

- غداً ستصك البطاقة ..

ووجدت البطاقة فعلا في اليوم التالي .. جاءتنى مع رسول خاص إلى البنسيون .. وعندما حضرت الجلسة شاهدت « جورج » جالساً بين أعضاء مجلس العموم .. ثم ..

ذهبت إلى النادي المصرى فى إحدى الأمسيات ، فوجدت عبدالكريم وماهراً جالسين وهما غارقان فى وجوم وزهق . وقلت :

- ما لكم يا جماعة ؟!

ورفع عبد الكريم رأسه ، وقال :

- وصل حسن ..

وضحكت قائلاً :

- لن تسأل فيكم فتحية بعد اليوم .

ونظر إلى ماهر كأنه يلومنى على ضحكتى ، وقال :

- لقد عاد حسن ومعه زوجته ..

وأحسست بشيء يقبض صدرى ..

حسن تزوج .. وماذا نفعل بفتحية .. كانى أصبحت مسئولاً عن فتحية ، وعن عواطفها .

وقال عبد الكريم :

- المهم .. كيف نبليغ فتحية بالخبر ؟!

وقال ماهر :

- والأهم .. هو ماذا يكون وقع الخبر عليها .. لقد انتظرت طويلاً .. خمس سنوات .. رفضت خلالها كل رجل تقدم لها .. والآن يعود إليها متزوجاً .

قلت :

- أعتقد أننا يجب أن نذهب إليها الآن قبل أن يسبقنا أحد آخر ، ونبلغها الخبر بحيث لا نصددها .

ووافق عبد الكريم وماهر .

وذهبنان نحن الثلاثة إلى فتحية .. وجلسنا إلى مائدة فى الحانة ، ونحن نرقبها بأعين مشفقة وهى تتحرك بين زبائننا فى نشاط ومرح ..

ولحقتنا ..

وجاءت وجلست معنا ..

وأخذنا نتحدث .. وكلامنا يتكسر على ألسنتنا .. وهى تنظر إلينا كأنها تحس أن هناك شيئاً نحاول أن نقوله ولا نستطيع .

وفجأة دخل كمال ، وهجم على مائدتنا .. ومد عنقه فى وجه فتحية ، قائلاً :

- ألا تعلمين .. لقد عاد حسن .. وصل اليوم .

وشهقت فتحية وقفز رأسها إلى أعلى .. وارتسمت ابتسامه فرحة بلهاء على شفثيها ، ثم أدارت عينيها فى وجوهنا كأنها تسألنا عن مدى صحة الخبر .. وأحنينا رءوسنا حتى لا ترى أعيننا ..

وانطلق كمال كالصاروخ متمماً كلامه :

- لقد عاد ومعه زوجة .. لقد تزوج حسن ..

واتسعت عينا فتحية وهى تنظر بهما إلى كمال كأنها لا تراه ..
ثم سقط رأسها على صدرها .. وبقيت فترة وهى صامته ..
صدرها يتهدج .. والدماغ تحتقن فى عنقها السمين .. وبدت كأنها
تبذل مجهوداً عنيفاً لتسيطر على إرادتها .. ثم رفعت رأسها فى
وقار كأنها ملكة بريطانيا .. وعلى شفيتها ابتسامة هادئة وقالت
فى صوت مرتعش :

- طبعاً .. كان يجب أن يتزوج حسن ..

ثم أدارت رأسها إلينا وقالت :

- المهم أن أراه فى أسرع وقت .. إنه لن يستطيع أن يدبر أمره
فى لندن .. لقد كان دائماً يعتمد على .. ثم إنه الآن ليس وحيداً ..
إن معه زوجته ..

ثم قامت وتركتنا .. ونحن نتبعها بعيوننا المشفقة .

ولم تكف فتحية تخطو بضع خطوات بين الموائد ، حتى توقفت ،
واستدارت تنظر ناحية الباب .. والتقتنا معها .. وإذا بشاب أسمر
وسيم ، عالى الجبهة ، تطل ابتسامته الهادئة من تحت شاربه ،
وبجانبه سيدة مصرية أنيقة جميلة صغيرة ، حامل ..
وصاح عبدالكريم :

- حسن ..

ثم هرع إليه ..

وصافحه حسن وهو يدبر عينيه فى أنحاء الحانة .. ثم توقفت
عيناها على وجه فتحية .. واتسعت ابتسامته .. ولوح لها بيده ..
وخطا نحوها تاركاً زوجته خلفه .. وخطت فتحية نحوه .. وهمس
وهو يمد ذراعيه إليها :

- فتحية ..

وهمست وهى تلتقط كلتا يديه :

- حسن ..

واحتضنها إلى صدره ..

وانطلق السكرارى من زبائن الحانة يضحكون ضحكات عالية ..
ولمحت دموع فتحية تسيل على وجهها وتخط خطأ عميقاً بين
أصباغها .

وأفلتها حسن من بين ذراعيه وسحبها من يدها ، إلى حيث

تقف زوجته .. وسمعتة يقول لها :

- عنايات زوجتى .. لقد حدثتها عنك كثيراً .. قلت لها إنك أكرم

وأطيب إنسانة .. وإنه لولاك لكنت الآن من ضحايا الحرب ..

وشدت فتحية عنايات واحتضنتها .. ثم قالت فى مرح .. مرح

حقيقى :

- إنها مناسبة يجب أن نحتفل بها ..

ثم نادى كبير الجرسونات وأمرته أن يغلّق جميع أبواب

الحانة ، حتى لا يدخل مزيد من الزبائن .. ومدت لنا مائدة

كبيرة .. وأخرجت كل ما عندها ..

وعرفونى بحسن ..

إنه شخص آخر غير ما تصورته .. ربما صورته لى أصدقائى

صورة مبالغاً فيها ، وربما هو الذى تغير خلال السنوات الست

التي انقضت منذ ترك فتحية .. إنه هادىء .. ذكى .. لا يشرب

كثيراً .. بل لا يدخن أيضاً .. وزوجته تنظر إليه كأنه أعظم رجل

فى العالم .

والحديث كله بين حسن وفتحية .. يستعيدان ذكرياتهما ..

وعنايات تقاطعهما أحياناً فقط لتثبت أن حسن روى لها كل شيء .. كل التفاصيل .

وقالت فتحية لحسن :

- أين ستقيم ؟

وقال حسن :

- وجدت شقة في حي بيزووتر .. غرفة واحدة .. أربعة عشر جنيهاً ..

وقالت فتحية ضاحكة :

- خدعوك كالعادة .. سأجد لك غداً شقة غرفتين بعشرة جنيهات في حي أرقى .. إنك الآن في حاجة إلى غرفتين من أجل المولود ..

وابتسمت عنايات قاطئة :

- لقد قال لي حسن إننا نستطيع أن نعتمد عليك .



وبقى حسن وزوجته في لندن عاماً واحداً أتم فيه دراسته .. وبقيت فتحية صديقة له ولزوجته عنايات .. لقد عادت عنايات وحدثتني عن فتحية كأنها أعز صديقاتها .. وبعد عامين عدت مرة ثانية إلى لندن ، وذهبت إلى حانة فتحية ..

ورأيتها .. إنها أسمن مما كانت .. وأقل نشاطاً .. والمساحيق زاد صراخها على وجهها ، وكانت جالسة على مائدة تضم ثلاثة من الشباب الهنود .. وناديتها :

- فتحية ...

ونظرت إلي كأنها لا تعرفني ، وقالت في لهجة حازمة :

- اسمي ليس فتحية .. اسمي هاتون راجا كريشنا .

ونظرت إليها في تعجب ..

إنه اسم هندي ..

ثم لاحظت أنها تضع على جبينها الدائرة الحمراء الصغيرة التي تسمى « تيكا » والتي يحلى بها نساء الهندوس جباههن .. وقالت فتحية أو هاتون ، وهي لا تزال تنظر إلي كأنها لا تعرفني :

- هل تريد شيئاً ؟

قلت :

- لا ..

ولم يكن في الحانة كلها أحد من المصريين ..

وخرجت ..